

"يُفشي أهل الحزن العميق سرهم حين يسعدون. لهم طريقة في  
تلقف السعادة كما لو أنهم يريدون أن يسحقوها ويخنقوها غيرة. آه  
.. إنهم يعلمون جيداً أنها ستفر منهم!"

قريدريش نيتشه – ما وراء الخير والشر

## إهداء...

...

في الحقيقة؛ ولكي أكون صادقًا فإنني  
لا أفكر في شخص بعينه الآن.  
بإمكان كل من أراد أن يتخيلني وأنا أهديه هذا العمل  
بشكل شخصي.

شخصان سيقتنيان هذا الكتاب:  
- شخص شدّه العنوان  
- وشخص شدّته لوحة الغلاف

وفي المحصلة النهائية؛ كلاهما سيقرا هذه الرواية.  
إذن؛ ما عليّ سوى أن أشكرهما على ذائقتهم اللغوية والفنية.

هشام آدم

## الفصل الأول

# في عزاء القونقلير

لا يهم؛ فقد أكمل للتو عدّ تجاربه العاطفية الفاشلة التي تجاوزت سبع عشرة تجربة، أنفق عليها زهاء العشرين عامًا من عمره. تخنّن أنه قد يكون نوعًا من الأميبا المتطوّرة، وقرر أن يعيش ما تبقى من حياته حصورًا، دون أنثى تحفّزُه على التحليل والمراوغة. لسبب ما، ربط ضجره الكوني بالنساء، وبدأ الإيمان بعدم جدواهن في حياته يتسلل إلى قلبه شيئًا فشيئًا كتسلل المختلس، وبطريقة نرجسية قرر أن يُكافئ نفسه، وأن يُعوضها عمّا لقيته بسبب بحثه الدءوب عن أنثى يُفرغ فيها حاجاته العتيقة. لم يفكر كثيرًا في صياغة مناسبة لمبررات قراره ذلك، كل ما توصل إليه في النهاية أنه لم يعد بحاجة إلى أنثى، وأنه، على الأرجح، سوف يكمل حياته منفردًا، مستمتعًا بكل لحظاتها.

وكوميض النبوة، تكشففت له أفكار نيرة حول حياته الخاصة، واقتنع بأنه ليس في حاجة إلى آخر يشاركه. "هل نحن بحاجة إلى مشاركة فعلاً؟" كانت تلك خلاصة التجارب وخاتمتها القيّمة، والحكمة التي امتثل لها أخيرًا.

منذ اليوم سوف ينفق راتبه الشهري في ترفه الخاص، وسيغدق على نفسه النعماء كما لم يسبق له من قبل. ورغم إحساسه المتعاضم بالأسى والأسف على اللحظات الجميلة التي أضاعها من حياته دون أن يستمتع بها كما يجب؛ إلا أنه قرر أن يعوّض ما فاتته، وألا يدخر جهدًا في سبيل ذلك.

دوّن، بحماس مُتقّد، قائمة من الكماليات التي توحى بالبذخ والترف، وتمنح النفس ذلك الشعور العزيز بالرفاهية والدلال:

- نافضة غبار يدوية من ريش الطاوؤوس
- فانوس إضاءة ليلي ملوّن
- ممسحة أقدام من القش المضغوط
- نافورة مياه جبسية مصغرة
- مجسم بلاستيكي عملاق للكرة الأرضية
- شموع معطرة للجو
- لوحات تشكيلية للحائط
- جوارب منزلية من فراء الأرانب
- عين سحرية لباب الشقة
- طقم من تماثيل الفيلة الأفريقية
- خزانة للكتب

كتب هذه الأخيرة وهو ينظر إلى تلال الكتب الناهضة في زاوية ما من غرفته، وشعر برضى شديد لهذا الاختيار الذي رآه موفقاً. اضطربت داخله حماسة محبة إلى نفسه، فوضع القائمة جانباً، وأشعل سيجارة برنجي، أخذ منها نفساً عميقاً، ثم تمدد على ظهره، وهو يتمطى في حبور طفولي غامر. راح ينقب في زوايا غرفته عن أشياء يمكن إضافتها، ثم نهض فجأة بذات الحماسة، وأمسك القائمة من جديد، وأضاف إليها بمكر مصطنع:

° مغطس مياه هوائي!

أوصلته تجارب حياته، أخيراً، إلى قناعة كاملة بأن النساء، كالأطفال، يقضين حوائجهن بالبكاء. تلك كانت إحدى مشكلاته الكبرى التي حالت دون توقفه، المبكر، عن خوض علاقات عاطفية منتهية بالفشل. كان كلما قرر التوقف؛ تأخذه غريزته إلى أحضان أنثى جديدة، تصب الشهوة في أوردته المتيبسة، والمتعطشة إلى الجنس دائماً. واحدة فقط هي التي ظلت تتقافز، باستمرار، من صندوق ذاكرته كروى الأنبياء. يشعر، عندها، بأنه لم يعيش من حياته سوى ما قضاه بين أحضانها الدافئة. كل الأسماء التي عكرت مياه تاريخه لم تستطع أن تشوش صفاء صورتها المنعكسة، وأخفقت كل محاولاته الجادة في نسيانها.

حاول التركيز على صفو مزاجه المخملي قدر المستطاع، قبل أن يرن جرس الهاتف، وينقل إليه قريب مشؤم خبر وفاة والدته إثر نوبة سكر. أحزنه الخبر، لأنه عنى له تأجيل أحلامه المخملية، وما يرتبط بها من سعادة. تذكر وجوه أفراد عائلته الممتدة في بانوراما ذهنية سريعة، وتخيّل عبء تلقيه العزاء من هؤلاء البؤساء. لعن في سرّه كل وجه على حدة، قبل أن يخرج من ثلاجته الصغيرة قارورة الخمر، ويبدأ رحلته الميتافيزيقية اليومية.

\*\*\*

في منزل العائلة الكبير، الذي كمنازل النمل، بغرفته الكثيرة والمتداخلة، وقف أمام جثمان أمّه المسجى على عنقريب الجرتق المصنوع من خشب السروج. وقبل أن يكشف عن وجهها، تأمل منظر جسدها المترهل كشحنة إسفنجة، وهو يتساءل عن مصيرها، وعمّا إذا كان ذلك المصير يستحق المشقة التي بذلها في طريقه من العاصمة إلى ريف العيكورة أم لا!

وللسخرية؛ فإنه لا يتذكر تفاصيل مجيئه من الخرطوم، أو متى، بالتحديد، كان ذلك، غير أنه يتذكر جيداً قلقه وخوفه اللذان لم يعرف لهما سبباً، إضافة إلى ضيقه الذي كان قد بدأ بالتخلّق، منذ أن وطأت قدماه محطة السوق

الشعبي الخرطوم، وحتى وصوله إلى هذا المكان الذي يعج بالناس ذوي الأعين المخيفة، والوجوه الواجمة والباهتة، كأنهم تماثيل نصفية في مرسوم فنان بوهيمي.

مرت بذهنه صور باهتة لوجوه بائعي المثلجات في السوق الشعبي الخرطوم، وأصوات طقطقة الأكواب النيكلية المغرية، والفتيات اللواتي يبعن منتجات التجميل الصينية، وكريمات تفتيح البشرة، دون أن يتمتعن بتلك الميزة على الإطلاق، منتصبات على الأرصفة الترابية كعبدان القمح السمرء تحت لهيب الشمس، وهن يرددن بلا توقف: "المعلقة بنص جنيه!" والفتيان البائسين، ذوي الوجوه الكالحة، حفاة الأقدام، الراكضين وراء أكياس النايلون المتطايرة في المكان يحاولون الإمساك بها، وبيع ما تجمع منها لمصنع تدوير البلاستيك مقابل حفنة من الجنيهات، التي بالكاد تكفي لكوب من عصير العرديب المثلج لكل واحد منهم، والرجال المصابين بالجدام، كمسوخ مشوهة، تسير، بقوائمها الخلفية كحشرات فضائية دميمة، على أرصفة وشوارع العاصمة، دون أن يلتفت إليهم أحد شفقة أو استمزازاً.

أطفال الورنيش الذين يعبثون شوارع العاصمة الهادئة بأصوات كشكشة علب الصلصة الفارغة، إلا من بعض الحصوات الصغيرة الملساء، ولم يغب عن باله، كذلك، رائحة البول التي تعبق المكان، جنباً إلى جنب مع رائحة زيوت السيارات القديمة المتكلسة على الطرقات، والتي لا يعلم أحد من أين جاءت. ومواء الققط الشرسة، وشجار طلاب الجامعات مع بائعي السعوط، وألف صوت وصوت. يتذكر كل ذلك، وكأنه حدث قبل ألف عام.

للموت، عنده، رائحة مزعجة وغريبة، أشبه برائحة القطن المبلول. يعرف تلك الرائحة جيداً، ولا زالت عالقة بمراكزه الشمية منذ حادثة غرق قديمة، شارك فيها على مضض بغسل الضحايا، كما أن للموت هيئة لم يستشعرها جيداً. خيل إليه أن الأمر أشبه بمسألة وقتية عابرة، تنتهي بافتقارنا للموتى؛ ذلك الافتقاد الذي لا يرتبط بالموت نفسه، وإنما بعجزنا عن التواصل مع الآخرين. لم يكن في إمكانه التعامل مع الموت كحقيقة لها وقعها المؤلم والمؤسف، بل لم يستطع أن يتصور الموت إلا من حيث أنه موقف طارئ يجعلنا نشاق إلى الموتى لبعض الوقت.

ما إن رُفِع الغطاء الدموري الأبيض عن وجهها؛ حتى اعترته رغبة عارمة في الضحك. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها أمه ساكنة! لا يتذكر أن رآها صامتة كما هي الآن، وفمها لا يتحرك كما هو عادته منذ أن أدرك حقيقة العلاقة بينه وبين هذه السيدة النائمة على عنقريب الجرتق.

استغرب قدرتها المعجزة على الكلام المستمر والنميمة، وفي أحيان كثيرة، حين يعجز عن التأمل والقراءة، يجلس إليها، ويأخذ عنها أخبار أهالي العيكورة بالتفصيل: نفوق الأبقار، آفات الزراعة، الزيجات الحديثة، فضائح القرية، أسعار البضائع، أنباء السوق وأهله، قائمة الفتيات المقترحات للزواج، أحاديث النساء المملة التي لا يستسيغ سماعها إلا من أمه. لا يفعل ذلك بدافع الفضول أو بدافع الاطلاع على أحوال القرية؛ وإنما، فقط، لقضاء الوقت، ولا بد أن ينتهي الحديث، عندها، بذكر الشريشباب الأجلاف، الهاربين من بطش الدفتردار في زمن موغل في القدم، ليطمئن بذلك على استقامة خرفها على عوده.

أطال النظر إلى وجهها؛ فخيّل إليه أنها تبتسم أو تكاد، وكان كالذي يختبر قدرة الموت على تكميم الأفواه، وفرض قانون الصمت على أمه الثائرة. تصور الصراع الذي قد تعانيه، الآن، مع الموت حول هذه النقطة بالتحديد، وقدر أنها سوف تنتصر عليه في نهاية المطاف، وأراد أن يشهد لحظة الانتصار قبل دفنها، غير أن الأيدي امتدت لترخي الغطاء الدموري مرة أخرى على وجهها، ورفعوا أيديهم بحركة ميكانيكية موحدة، ونادى أحدهم بصوت أجش: "الفاخرة".

حل السكون، فجأة، على الغرفة التي سكنت رائحة الموت أوردتها الغليظة المعلقة على السقف مرقاً من خشب السنط المعمر، ما منحه فرصة جيدة لتذكر بعض تفاصيل القرية التي سقطت من ذاكرته منذ تسعة أعوام. هاجمته صورة النسوة القابعات في الغرفة المجاورة، تأتيه منهن أصوات غمغات كحممة الخيول. "إنها ورطة حقيقية!" قالها وهو يستثقل ما ينتظره بعد الانتهاء من مراسم الدفن المملة، والتي لن يناله منها إلا غبار المقابر التي تحمل تبر الأجساد الهالكة. كان واجبه الأكثر إلزامية: تقبل العزاء من نساء القرية المجاملات، وتعزية أخوته، وحملهن على التأسّي، وهو ما لا يطبق عليه صبراً، ولا يجيد تقنياته.

ما إن خرج الرجال من الغرفة حاملين النعش، متجاوزين بابها الحديدي السميك، حتى انطلق عويل النائحات متزامناً مع صوت العبارة الجنائزية المعهودة: "وحدوه .. لا إله إلا هو" فتبسم في سرّه، وقال: "يا لمكر النساء!" بطريقة ما، أحييت له إحدى الأصوات النسائية النائحة الحادة ذكرى أكيج دينق، بائعة الخمر التقليدية، التي تسكن في مكان ما على شاطئ النيل الأزرق، وتذكر تلك الليالي التي قضاها بصُحبته مُعاقراً للخمر الجيدة التي تصنعها بإتقان، وتشتهر بها في المنطقة "لا يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم!" قالها، وهو يعقد العزم على زيارتها في مسائه ذلك.

\* \* \*

في المقبرة؛ كانت الشمس في كبد السماء، ترسل وهجها، مباشرة، على رؤوس الرجال الذين وضعوا الجنازة أرضاً، وراحوا يجتهدون في حفر القبر بكل همّة، فيما همس إليه أحدهم بأنه لا توجد حاجة إلى أن يرهق نفسه بالحفر؛ لاسيما وأنه في حالة نفسية لا تسمح له بذلك، هذا الكلام أشعره ببعض السعادة والارتياح، ولكنه كذلك ألزمه بأن يبدي بعض مظاهر الحزن التي اجتهد في اصطناعها.

بعض المزارعين القادمين من مشروع الجزيرة في الجهة الغربية للعيكورة، وضعوا أطراف جلايبهم تحت أسنانهم، وأتوا راكضين، عند رؤيتهم لجمهرة الرجال في المقابر، وشرعوا في حفر القبر مع البقية، وهم يرددون: "لا حول ولا قوة إلا بالله!" دون أن يسألوا عن الجثة التي ينوون دفنها. أزعجه كثيراً حماسة الرجال، وتناوبهم على الحفر، وهم يرددون بين

الفينة والأخرى: "صلي على النبي .. صلي على النبي" وكان ذلك يعني إلزامية أن يترك أحدهم الرفاش للآخر، وخمن أن ذلك يعيق انسيابية عملية الحفر وسرعته، ولكنه أضمر ذلك في صدره ولم يصرح به لأحد.

كان منظر الرجال وهم يحفرون القبر، كأسراب غريبان نوحية متوحشة، تنهش بلا هوادة جثة كلب نافق، بينما وقف بعض الصبية غير بعيد عن مكان الدفن، ينظرون بعيون فضولية إلى ما يجري، وقد زجرهم بعض الرجال المتحمسين، وأمرهم بالبقاء بعيداً. كان الغبار المتناثر من عملية الحفر يختلط مع العرق المتصبب من جبينه، فشعر بأنه عاد كائناً طينياً من جديد. أحس بالانزعاج الشديد لذلك، واسترق النظر إلى جثمان أمه المسجى على الأرض، علّه يشهد لحظة انتصارها على الموت، ولكنها كانت ما تزال هامدة بلا حراك؛ فشعر بالحزن لهزيمتها. امتلك قناعة راسخة بأن حزنه ذلك أصدق من حزن الآخرين الذي لم يمنعهم من الجد في حفر القبر، ورأى في ذلك تناقضاً صارخاً زاد من إحساسه بالاستياء.

لاحظ على الفور أنه مركز اهتمام بالغ من الحضور، وأن الجميع يسعون إلى تلبية احتياجاته بالسرعة المطلوبة، وأشعره ذلك بالتميز. هو يعلم أن أقرب الناس للميت أكثرهم حظوة عند المعزين، ولذلك فإنه لم يشأ أن يستغل هذه الخطوة استغلالاً سيئاً، واكتفى ببعض التصرفات التي توحى بأنه مستغرق في الحزن.

في البيت، وقبل الجلوس في الصالة المخصصة لاستقبال التعازي، طالب حامد ودالنيم الاختلاء به لبعض الوقت، وبطريقة جادة أخرج بعض الأوراق من جيبه، وبدأ يعرضها عليه. كانت الأوراق عبارة عن: تقارير طبية، ونتائج فحوصات معملية، وشهادة وفاة معتمدة من المستشفى. لم يبد أي اهتمام بكل تلك التفاصيل؛ لاسيما وأنه يعلم تماماً أن أمه الآن ترقد في قبرها بارتياح، وأن هذه التقارير والأوراق عديمة القيمة إزاء المحصلة النهائية، والحقيقة الأكيدة، ولكنه اكتشف في نهاية الأمر أن ذلك كان بدافع إبداء الحرص، وإخلاء المسؤولية لا أكثر.

\*\*\*

حامد ودالنيم زوج شقيقته الكبرى رجل مشهور عنه الحرص الشديد، ويذكر أنه الوحيد في العيكورة، بين أقرانه، من يحتفظ بشهادة ميلاده، إضافة إلى الشهادات المدرسية منذ المرحلة الابتدائية، وحتى الثانوية التي اجتازها بصعوبة بالغة، كما أنه ما زال محتفظاً بتذاكر سفره إلى أديس أبابا لحضور حفل الفنان محمد وردي عام 1989، إضافة إلى بطاقة صعود الطائرة؛ بل وتذاكر الحفل نفسه. ورث عشق جمع الأشياء والاحتفاظ بها عن والده ودالنيم جار الله البال، ولا أحد يعلم المعيار الذي يقيم به الأشياء التي تستحق الاحتفاظ من تلك التي لا تستحق.

يذكر تلك الليلة التي جاء فيها من قرية شيخ طه سيراً على الأقدام، جازاً وراءه أتانٍ عشاء، ليخطب شقيقته الكبرى، وفيما راح يتحدث عن نفسه، وعن عائلته وجذورها العرقيّة التي تعود إلى الإمام موسى الكاظم؛ انشغل هو



بتعداد أوجه الشبه بينه وبين شقيقته؛ إذ كان قصيراً مفطحاً في القصر، بدينًا، وبلا رقبة إلى الحد الذي يشبهه معه دمي الم تريوشكا الروسية، له ثآليل بارزة ومتفرقة في وجهه ورقبته، وقواطع أسنانه الأمامية متفرقة عن بعضها، وتتطاير شذرات اللعاب من فمه أثناء الكلام، وحاجباه العريضان يكادان يلتقيان، لولا عناية الطبيعة، وعيناه ليستا متساويتا الحجم تمامًا، وعندما انتبه إلى كلامه: "هل تزوجني أختك؟" أجابه على الفور: "بالتأكيد؛ فأنتما متشابهتان تقريبًا".

لم يجد مبررًا لوجوم بعض الوجوه التي لا يعرفها، والتي لم تكن حتمًا تعرف أمه، واعتبر ذلك نوعًا من الزيف الاجتماعي الذي يطغى على المناسبات من هذا النوع، وفيما كان البعض يتهامسون، وبعض الفتيان يوزعون كؤوس الشاي المنعنع على المعزين دون توقف، انهمك في متابعة جعران وقح يسير، بلا مبالاة، بمحاذاة الجدار، دافعًا أمامه كرة من الروث، دون أن ترهبه هيبة اللحظة الحزائية المخيمة على المكان.

أعجبته استقلالية هذا الجعران، وانصرافه إلى أمور أهم بكثير من الحزن على الموتى، وربما شعر بشيء من الحسد تجاهه. كل ما أراده هو أن تنتهي مراسم العزاء ليذهب إلى أكيج دينق، ويحتسي خمرها الجيدة، ويضاجعها إن وجد إلى ذلك سبيلًا، ويعود.

انتبه، كما انتبه الجميع، على صوت بوق حافلة قديمة من طراز هايس تحمل أطنانًا من البشر، توقفت في الباحة المقابلة للمنزل؛ فأشعره ذلك بمزيد من الإرهاق والتعاسة، وظن أن يومه الممل لن ينتهي أبدًا، ولن تتوقف العيكورة عن مفاجأته طالما هذا العزاء قائم. ترحل الراكبون نساءً ورجالًا، ومضت النساء، على الفور، إلى القسم الآخر من المنزل المخصص للنساء، وهن يطلقن عويلهن المبلودرامي المزعج، بينما تقدم الرجال، وهم يهندمون ثيابهم، ويصلحون عماماتهم ويسرعون الخطى، ليتوقفوا أمام الصلاة مباشرة، وزعقوا بصوت كلاسيكي موحد: "الفاتحة".

\* \* \*

نظر إلى من حوله، وتفرس في الوجوه التي كانت بعضها حزينة، وبعضها الآخر ذات ملامح حيادية، بينما جلس أشخاص غير مألوف في السحنات في ركن قصي يتبادلون أحاديث ضاحكة بطريقة خافتة، ووجد رجلًا مطأطأ الرأس مخفيًا وجهه بطرف عمامته، فاقتبس منه الفكرة؛ حيث وجدها ذكية للغاية. كان بإمكانه أن يغفو قليلًا خلف عمامته، بينما يعتقد الآخرون أنه يمارس حزنه على أمه في خصوصية، بعيدًا عن أعين المتطفلين الذين تهمهم متابعة حالته النفسية، إما ليستلهموا منها ما يقيهم حزاني أو لمجرد الفضول. ما كاد يغمض عينيه قليلًا حتى أحس بدغدغة ناعمة على كتفه، رفع رأسه في استياء ليجد طفلًا يهمس في أذنه: "هنالك سيدة بالخارج تريد أن تعزيك".

استأذن في لباقة مصطنعة من حامد ودالعيم، ولم يفهم لماذا فعل ذلك، ولكنه وجد أنه من الجيد أن يستأذن منه، كتعبير عن امتنانه لملازمته اللصيقة له منذ وصوله من العاصمة. قام متثاقلاً، وهو يستشعر الضجر من كل ما يجري

من حوله، وعند الباب الفاصل بين صالة عزاء الرجال، وصالة عزاء النساء، كانت عديلة عبد الرحمن بابو تقف متوشحة عباءتها القاتمة، وهي تنوح بنبرات متقطعة ومنظمة، وما إن رآته حتى توقفت عن البكاء، ورفعت كفيها بخشوع وهمة، وهي تقول: "الفاخرة".

أدرك على الفور أنها لم تجتهد في قراءة الفاخرة كاملة؛ فالوقت الذي استغرقت فيه لم يكن يكفي لقراءة آيتين متتاليتين، ولكنه شعر بالارتياح لذلك، لأنها أزاحت عنه عبء التكرار الذي بدأ يمله ويذهب فيه. وبحركة درامية ألفت عديلة بابو بجسدها الممتلئ عليه، وراحت تبكي في هستيريا ألهمت حماسة النساء الأخريات اللواتي رحن يكيبن تبعاً لذلك.

لم يجد بداً من أن يربت على كتفيها في محاولة لمواساتها، وشغله عن ذلك، لاحقاً، مرور وقية عبد الباسط من أمامه، ولم يبد عليها أي تغير طارئ. كانت مثلما تركها قبل تسعة أعوام: بطولها الفارع المشدود، وأردافها وثدييها المغريين، ونظراتها المثيرة ذات المغزى الجنسي، وراح يتذكر الليالي الحمراء التي قضاهما معها بين حقول القصب، ورأيه المتطرف أن لاسمها المتخلف القديم علاقة مباشرة بعدم حصول المتعة الجنسية الكاملة معها.

ساعدته تلك الذكرى الممتعة على تخطي اللحظات العسيرة التي كان من المفترض أن يقضيها في مواساة عمته الباكية على صدره، وأدهشه التفاني الذي تظهره النساء في البكاء. هو يعلم أن عمته وأمه لم تكونا على وفاق دائم، بل يكاد يتذكر عدد المرات التي دعت كل واحدة منهما على الأخرى بالموت والثبور، حتى أن أمه خصصت وتراً للدعاء عليها بأن تموت حرقاً، وتركت لله حرية أن يختار الكيفية والمكان الذي يجب أن تحترق فيه، بعيداً عن بيتها وعن ناظرها. في لحظة ما، أحس أن بقاء عمته على صدره قد استغرق وقتاً أكثر مما يجب، فدفعها عنه برفق وهو يقول: "ما حدث؛ حدث وانتهى!" وتدافعت النسوة لتعزيته استغلالاً لوجوده بينهن، مما جعله يشتت غضباً، فزجرهن دفعة واحدة: "كفاكن بكاء! ماتت أمي وانتهى الأمر، وقد ألحق بها إن لم يخرج الغداء حالاً". حاول تدارك الأمر عندما وجد بكتيريا الدهشة تتكاثر في أعين النساء اللواتي توقفن فجأة عن البكاء والعيول: "أعني؛ يتوجب علينا أن ننظر إلى الجانب الجيد من الأمر، فقد ارتاحت من مرضها أخيراً، ومن تعاسة هذه الدنيا."

\*\*\*

ثلاثة عجول ذبحت على الغداء ذلك اليوم، تكفل بهن حامد وداليم. نصبت الموائد أرضاً، وبدأ الجميع يأكلون في صمت مطبق؛ فلم يُسمع منهم إلا صوت اصطكاك الأطباق، وصرير الأسنان، وحركة المضغ داخل الأفواه الممتلئة. كانت تلك من اللحظات النادرة التي شعر فيها بالسعادة المطلقة؛ فمنذ وصوله إلى القرية لم ينعم بمدة كهذه

الذي ينعم به الآن، كما أنه لم يتناول طعامًا منذ مجيئه؛ فيما امتلأت معدته بالشاي المنعنع الذي لم يتوقف فتیان القرية عن توزيعه على المعزين خلال ساعات العزاء الطويلة المملة.

لاحظ حرص ودالنعيم على الجلوس إلى جواره على مائدة الغداء، ولم يستطع أن يمنعه من ذلك، ولاحظ أيضًا أنه كان يقتطع أجزاء من ضلع العجل المطبوخ ووركه، ويضعها أمامه في نكران ذات لم يتوقعه منه على الإطلاق، ولكن أكثر الملاحظات التي توقف عندها كانت الحماسة الشرهة التي يأكل بها الجميع، والتي لم تكن منسجمة مع مناسبة حزينة كهذه، ولكنه أضمر ذلك ولم يطلع عليه أحدًا.

من يتأمل ودالنعيم وهو يتناول طعامه، يعرف سر بدائته المفرطة، فهو بالكاد يمضغ الطعام، ليستقر في معدته كما اقتطعه بيديه. يشعر المرء أنه لا يملك أسنانًا داخل فمه؛ بل مطحنة! فقطعة اللحم التي يجتهد الآخرون في تمزيقها، يبتلعها هو كما يبتلع أحدنا قطعة الجيلاتين أو الحلاوة الطحينية.

ودالنعيم يعتبر الأكل مهمة مقدسة يجب أن تؤدي بكثير من الاهتمام، وهو أحد المؤمنين بأن الإنسان يعيش ليأكل؛ لذا فإنه ينهمك في الأكل إلى حد الانفصال عن الواقع؛ فلا يعود يشعر بوجود أحد حوله. تلك أشبه بحالات التسامي التي تعتري المتصوفة، بيد أنه يخلف وراءه دمارًا واسعًا، وفوضى تشعرك بالرتاء. عندما يكتشف أنه لم يعد قادرًا على البلع؛ يتوقف برهة ليرتشف قليلًا من الماء، وقتها فقط يرمق من حوله بنظرات سريعة غير آبهة، ثم يعود لمواصلة طعامه بذات النهم.

بعد الغداء، تعاظمت حاجته إلى التدخين والاسترخاء. مد يديه لأحد الفتیان الذين تولوا غسل أيادي المعزين، ولم يجتهد في أن ينظر إليه لمعرفة؛ فهو لا يعرفه بالتأكيد. لقد غيرت السنوات التسع كثيرًا من أحوال القرية، فمات أقوام وولد آخرون، ولم يكن مهتمًا بالبحث في هذا الشأن على أية حال. كانت عادة الرجال أن ينظروا في أعين الصبيان، وهم يغسلون أيديهم، ويسألونهم ليعرفوا أبناء من هم، وفي أي مرحلة مدرسية يدرسون، ولا يعرف أحد فائدة لذلك، ولكن هذا ما جرت عليه العادة. غسل يديه جيدًا ثم توجه مباشرة إلى إحدى الغرف الكثيرة في منزل العائلة الكبير التي يعلم أنها لن تكون مأهولة بالزوار، فعل ذلك خفية عن ودالنعيم الذي كان يراقبه كظله؛ أو كهذا خيل إليه.

أغلق الباب وراءه، وتأكد من ذلك، قبل أن يرخي ستار النافذة الخفيف، حجبًا لأشعة الشمس التي كانت على وشك الزوال. أشعل سيجارة برنجي دخنها بشراهرة، ثم تمطى في سعادة. "أجمل لحظاتها على الإطلاق هي عندما نكون منعزلين تمامًا. تلك واحدة من أهم اللحظات التي نتهاون في استغلالها على الوجه الصحيح." قالها مستشعرًا نشوة هي أقرب إلى نشوة الجنس، وهو يتمدد على ظهره بعد عناء يوم طويل وممل. كانت لديه رغبة في إمضاء دقائق للتأمل فيما جرى في يومه ذلك على نحو سريع، ولكنه نام مباشرة دون أن يفعل.

استيقظ فجأة، وأحس بأنه نام لوقت طويل، نظر من خلال فتحات الستائر الخفيفة إلى النافذة، فوجدها مظلمة تمامًا. "يبدو أنني نمت طويلًا" هكذا ظن؛ قبل أن يعرف لاحقًا أنه لم ينم سوى ساعتين فقط، كانت كافية لأن

تغرب الشمس، ويحل الظلام أرجاء القرية التي لم تدخل الكهرباء أرجاء واسعة منها بعد، وكافية لتجدد فيه النشاط كذلك. كان الهدوء قد بدأ يفرض سطوته على المكان، ولكنه سمع صوت ودالنعم من جهة ما، فلم يشأ أن يتقابل به؛ فخرج من أحد أبواب المنزل الخلفية.

\* \* \*

للريف، ليلاً، نكهة خاصة يألفها تماماً، رغم أنه لم يعد ينعم بليل هانئ منذ أن استوطن العاصمة، وأمضى فيها تسع سنوات من عمره. تذكر ذلك اليوم الذي أبلغه أحد زملائه في العمل بأن مدير البنك يريده في أمر عاجل وعلى انفراد. كان يسمع منهم أنه رجل نزق ومزاجي وحاد الطباع، ولكنه لم يقف على شيء من ذلك؛ فقد كان يراه رجلاً عادياً كغيره، وظن أن الآخرين يخلعون عليه تلك النعوت ليبرروا خوفهم أمامه. كل ما فعله هو أن ابتلع العلكة التي كانت في فمه، ومضى إليه من فوره.

طرق الباب ودخل قبل أن يؤذن له، وكانت تلك عادته دائماً. رأى قسم السيد دفع الله جالساً على مكتبه العادي مثله تماماً، منهمكاً في قراءة إحدى التقارير المالية التي ترده يومياً من قسم الأراضي والتعويضات، اكتفى بإلقاء نظرة سريعة عليه من تحت نظارته الطبية السمكية، وأشار إليه بالجلوس؛ فجلس. سمعه وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة، ولكنه خمن أنه يتذمر من تلك التقارير التي باستطاعتها أن تنهي سيرته المهنية، وتحيله إلى التقاعد المبكر. بعد لحظات رفع قسم السيد رأسه، ونزع نظارته الطبية، وألقى بها على المكتب، وعقد أصابع كفيه ووضعهما أمام كرشه:

- شرف الدين عبد الرحيم بابو؛ ملفك المهني نظيف ومشرف، ويشهد لك زملاؤك بالأمانة والالتزام، رغم بعض المآخذ والملاحظات البسيطة طبعاً. لقد رأينا أنك الوحيد المستحق للترقية، وسوف تنتقل إلى مكاتب الإدارة في العاصمة؛ فما هو رأيك؟
- لا بأس!
- ليست لديك اعتراضات تذكر؛ أليس كذلك؟
- لا أجد فرقاً بين هنا وهناك. عموماً إذا كان ذلك قراراً إدارياً فسوف أنفذه.
- جيد؛ سوف تستلم عملك في قسم خدمة العملاء في الخرطوم اعتباراً من بداية الشهر القادم، فتجهز منذ الآن. أتمنى لك التوفيق.

نفض وهمّ بالانصراف قبل أن يستوقفه قسم السيد مضيّقًا: "لا تقلق، سوف يزيد راتبك بنسبة 10% فالمعيشة في الخرطوم أغلى مما هي عليه هنا." ولكنه رد في اطمئنان: "لست قلقًا." وهز رأسه في احترام، وانصرف على الفور. حاولت الأسرة أن تحتفل بهذه المناسبة، واشتروا علبة مانتوش خصيصًا لهذه المناسبة، ولكنه لم ير في ذلك ما يستحق الاحتفال، وشرع في تجهيز نفسه للسفر، وسافر في الموعد المحدد تمامًا، فاضطروا إلى الاكتفاء بتوزيع حلوى المانتوش على الجيران والأطفال الذين جاءوا للمساعدة، أو لنقل ما يجري لأمهاتهم في البيوت. مازال يتذكر وصايا أمه وهو يستعد لركوب الحافلة بأن يحذر من شيئين: البنات والعساكر.

"إياك والسياسة؛ فهي قمار بين الشيطان والحكومة! احذر العساكر، فهؤلاء لا تعرف قلوبهم الرحمة، فقد رضعوا حليب الضباع، وإن اقتادوك إلى مكان ما، فسوف لن تتمكن من العثور عليك مرة أخرى. تعلّم أن تقول لهم (نعم) دائمًا لتضمن السلامة. واحذر بنات الخرطوم، فهن أخوات الأباليس، ولا شيء يصنعه سوى إغواء الشباب، وأنت ساذج وطيب ويسهل خداعك، والوحدة سوف تجعلك تناسق وراءهن."

طمأنها بكلمات حادة وحاسمة، واعتلى درج الحافلة مسرعًا قبل أن تتذكر شيئًا آخر. هو يعلم أنها ستكرر وصاياها التي طالما رددتها على مسامع والده من قبل، ولم تكف عن ترديدها له كذلك حتى حفظها عن ظهر قلب، ولم تكن له رغبة في سماعها في ذلك الوقت الحرج، والحافلة على وشك أن تغادر. ولم ينس طعم قبلاطها التي أغدقتها عليه ذلك اليوم، ورائحتها القريبة من رائحة القونفلير. "كان فمها لا يكف عن الحركة!" قالها وهو يبتسم قليلاً، ثم رسم على وجهه ملامح أخرى أكثر جدية.

## الفصل الثاني

# لا يقتل الوهم إلا مزيداً من الوهم

بفراسة المشتاق للخمر، والمتلهف عليها استطاع أن يستدل على بيت أكيج دينق في ظلام العيكورة الدامس، ولم يكن يصعب عليه ذلك، فلامح القرية لم تتغير كثيرًا. نفس البيوت الجالوصية الفقيرة، وغيطان البرسيم والباذنجان البائسة، وحظائر الحمير والمواشي المبنية من الطين والمسقوفة من خشب السدر الهش وسعف النخيل اليابس، ونفس الأرض الترابية يتمدد عليها خط طويل، متعرج ومنهوك، هو طريق مرور العربات الوحيد في القرية.

كانت حانة أكيج المتواضعة تقبع في هدوء على ضفة النيل الأزرق، أمام ساحة بائسة كانت فيما مضى مريضًا للخيول، ثم كمائنًا لتصنيع الطوب الأحمر، ومازالت مداميك الطوب منتشرة في المكان كمداخن من المكعبات الصغيرة أو شواهد قبور فرعونية، وضوء البدر شبه المكتمل يترك بقعًا من الضوء على المكان كوجه أفريقي في طقس وثني خاص؛ لتمنحه بذلك سريرية إضافية، استفاد منها في تخليق حالة من الشحن المتفرد.

استشعر مثالية اللحظة من رائحة الخمر التي تمكنت من اختراق أنفه والاستقرار في دماغه، وأعادته، برفق، إلى ذكريات أوشك على نسيانها؛ فراحت تمر في مخيلته الواحدة تلو الأخرى. "زماله الخمر لا تنسى بسهولة!" هذا ما رددته الكثيرون، وما تذكره وهو يلج الحانة أخيرًا.

في أزمنة غابرة كان شرف الدين أحد مرتادي حانة أكيج المواظين على الحضور كل ليلة، وكان لا ينسى أن يجلب معه في كل مرة هدية يعبر بها عن امتنانه العظيم بصناعتها المتقنة: ثياب، وملايات، وأواني منزلية مستخدمة، وفانوس زيتي، وملابس داخلية يسرقها من خزانة أخواته؛ حتى أنه قدم لها ذات ليلة ساعة يدوية من الجلد الطبيعي.

شهد معها مواسمها الخاصة، عندما كانت تحتفل بأعياد الميلاذ الجيدة، ومعها تعرف، لأول مرة، أسرار رقصة الأرداف السحرية، وعندما قدمت أختها رايبكا من جوبا، كان قد شارك في احتفالهم الأسري المصغر، وحتى عندما وضعت رايبكا مولودها الأول، من زوج لم يره، كان حاضرًا، واقترح تسميته (قاسم)؛ ففعلوا رغم كونه اسمًا عربيًا. عايش معها كل لحظاتها الحزينة والسعيدة؛ فتجاوز بذلك، عندها، كونه زبونًا اعتياديًا؛ فكانت تخصه بالنخب الأول من الخمر التي تصنعه.

يذكر تلك الليلة التي أفرط فيها في الشراب، وسقط في إحدى حفر الكمائن، ولم يتمكن من العودة، كيف أنها حملته، بمساعدة بعض أنصاف السكارى الذين تواجدوا ليلتها، وهيات له فراشًا للنوم، وأحاطته برعاية كاملة. أمضى معها أربع ليال متتالية، لم يحتج فيهن للخروج، ولم يتذكر مسئولياته المرتبطة بعالمه الخارجي، كما لم يشعر بأنه غريب عن المنزل، وتزامن ذلك مع عدد من المناسبات الأسرية الخاصة بها. ابتسم وهو يتذكر استقبال أسرته له، بعد اختفائه الغامض، كاستقبال العائد من الحرب، واكتشافه أنه فوّت احتفال العائلة بختان أحد أبناء أخته الكبرى، ولا يتذكر ختان من أبناءها كان.

على عكس ما توقع، فقد استقبلته أكيج ببرود واعتيادية جعلته يلجأ فورًا إلى ركن قصي، ويجلس في هدوء منتظرًا أن تحضر له كأس الخمر. تغيرت خانة الخمر كثيرًا، والجدار الغربي الذي كان منهاجًا انتصب ببعض الطوب الأحمر

المتكسر، وثمة راكوبة جديدة، شيدت من أعواد الخيزران، مغطاة بقطعة من الخيش مثبتة بحجارة عملاقة، وغرفة جديدة مبنية من اللبن وروث البهائم والقش اليابس، يتدلى من داخلها قماش رث جعل كباب لها، وسكان المنزل ازدادوا عددًا وحركة.

لاحظ وجود كلب غريب الأطوار يرقد في هدوء تام، ظنه ميتًا للوهلة الأولى، لولا حركة ذيله المتوترة. يرفع رأسه في لامبالاة واضحة عندما يستشعر حركة قريبة منه، ثم يعود ليدفن رأسه بين ساقيه من جديد. ملامحه بائسة؛ بل ومعبرة بصدق عن البؤس والارغبة في أي شيء. شعره الخفيف كالثوب الرث الذي لا يستر جسدًا ولا عورة، وأنفه الرطب يحوم حوله رهط من الذباب؛ فلا يهشه عنه ولا يتذمر، وكأن الأمر لا يعنيه في شيء.

في الجهة الأخرى من الحانة، كان رجلان ضخما الجثة يضحكان بصوت عال، وهما يتبادلان الأحاديث الماحنة. كان صوتهما كصوت رعد مأنسن، فتوقع أن تطردهما أكيج من أجل ذلك، ولكنها لم تفعل. في الحقيقة لم يكن في كلامهما ما يضحك على الإطلاق، ولكنه راح يراقبهما بنصف اهتمام، ريثما تأتي له أكيج بالخمير، وابتسم معلّمًا على تصرفاتهما الخرقاء: "هكذا يكون الأمر عندما يسكر الجهلاء والأغبياء!" كانت له فلسفته الخاصة في الشراب، فكان لا يرى للأغبياء والجهلاء حاجة لمعاقرة الخمر؛ إذ لا يرهقون عقولهم في أمر، لتستحق عليه المكافأة بالغياب الجزئي، فعقولهم، بالنسبة إليه، غائبة فعلاً.

جلس في تأدب حتى قدمت أكيج، وهي تحمل كأس الخمر، وهمست بصوتها الحاد، ولكنتها العربية الركيكة: "زوجي ذلك الجالس أمامك، فلا تتهور كما هي عادت." عندها فطن لمعاملتها الفظة، وعاد يبتسم من جديد ويستشعر دفء المكان وحميميته، ولم يسألها عن زواجها، وكأنه توقع ذلك، أو ربما لم يكثر له. مازالت خمرها جيدة كما كانت قبل تسعة أعوام، فتنهد في سعادة وهو يتناول كأسه الثانية: "هذه ستكون لروح أمي وهي في صراعها مع الموت والصمت."

سمع صوتًا يألّفه جيدًا، صوت كفحيج الأفاعي أو حشرجة محتضر؛ فعرفه على الفور. رجل يدعى النيل رزقة؛ رث الثياب، شديد الاتساع إلى الحد الذي يبدو فيه قديمًا وطاعنًا في السن. زبون قديم لهذه الحانة، وربما كان جزءًا منها، فهو يجده هنا دائمًا، وفي أوقات مختلفة. ورغم منظره الموحى بالبؤس والفقر؛ إلا أن حديثه، غالبًا، ما يشي بأصول أرستقراطية، وكثيرًا ما كان يهذي بلغة فرنسية رصينة عندما يبلغ مبلغه من السكر، دون أن يتمكن أحد من فهم ما يقوله. ثمّة علاقة غريبة بينه وبين أكيج، فرغم أنهما دائمي الشجار؛ إلا أنها لم تكن تطالبه بنقود نظير ما يشربه من خمر. وكعادته القديمة فإنه بدأ بذكر أشياء لم تحدث، ويتلفظ بكلمات ماحنة:

"أكيج؛ لماذا ترفضين العودة إليّ؟ هل تعرفين رجلًا له عضو ذكري أكبر مما أملك؟ طلاقنا في العام 1991 لم يكن شرعيًا، والمأذون الذي طلقنا كان مخمورًا، وبإمكانني إثبات ذلك. القانون يسمح لي بإرغامك على الرجوع، أحفظ



القانون عن ظهر قلب. القانون هو لعبة الخارجين على القانون Law est un jeu pour hors la loi. لقد ذهبت إلى لندن لحضور مؤتمر عن الجفاف في أفريقيا، المرة القادمة سوف آخذك معي، فهناك مؤتمر آخر عن الأيدز؛ هذا يناسبك ويهمك كثيراً. تزوجيني؛ وأنا أضمن لك المتعة التي تبحثين عنها، وعلنا ننجب أطفالاً ملونين، هل نسيت ..."

فما كان من زوجها إلا أن نحض من مكانه، فاكشف شرف الدين مدى ضخامته، وتوجه نحوه وحمله، وكأنه يحمل هراً مريضاً، وألقى به خارج الحانة، ثم عاد وجلس في مكانه كما كان. ظل صوت النيل رزقة المبحوح يأتيه من الخارج إلى أن اختفى شيئاً فشيئاً، ولم يوقف ما حدث صراخ الرجلين الذي كان قد ارتفع أكثر من ذي قبل. كان شرف يتعجب من مقدرة أكيج دينق على إدارة الحانة بمن فيها من سكارى، وهي بالتأكيد مهمة شاقة، وليست يسيرة على أية حال: أن تتمكن امرأة من ترويض رجال غائبين عن الوعي، وأن تتحمل أمزجتهم المختلفة، وتحسن التعامل مع كل منها، بطريقة تجعلها تحافظ على قدر معقول من السلامة والأمن في منزلها، وبحيث تضمن عودتهم إليها مرة أخرى. لم يمض وقت طويل حتى غادر زوج أكيج الضخم ذو الملامح الجامدة بعد أن خاطبها بلغة لم يفهمها، ولكنها لم تكن ودودة على أية حال؛ عندها تقدمت منه بحماسة بادية، وجلست إلى جواره وهي تهش عن وجهها دخان سجائره الكثيف كتنين أسطوري، وتبادلا أطراف الحديث:

- أراك اتجهت إلى التدخين؛ ما الأمر؟

- !!

- كان لابد أن أنتظر حتى يغادر جيمس، اعذرني.

- من جيمس هذا؟

- زوجي الذي رأيته. دعك من هذا؛ أين كنت طوال هذه السنوات أيها المجرم؟

- لقد استقر بي المقام في الخرطوم، وجمت صباح اليوم فقط.

- لا تقل لي إنك اشتقت إليّ أو إلى حمري!

- لا، ماتت أُمّي فجئت للعزاء.

- خبر سيء؛ ومتى ماتت؟

- لا أدري؛ ولكنها دفنت اليوم. لقد أثقلت صدرها بالهموم ولسانها بالنميمة. انتهى الأمر الآن على أية حال.

- كيف لا تعرف متى توفيت أمك؟

- اتصلوا بي صباح اليوم، وأخبروني بأنها توفيت، ونسيت أن أسألهم متى كان ذلك، ولكن لابد أنها توفيت

بالأمس؛ فالأخبار السيئة لا تنتظر!

راحت تحدّثه عن المستجدات على حياتها الشخصية: لماذا ومتى تزوجت من جيمس عامل البناء المتشائم على الدوام، وكيف باعت الأبقار التي قدمها كمهر لها، وأنفقت ثمنها في إقامة الجدار الغربي للمنزل، وفي بناء غرفتهما الجديدة، وأخبرته عن موت كلبها الشرس بلدغة من عقرب، واستيائها البالغ من الكلب الكسول الذي لا ينبح إلا إن وطأ أحدهم على ذيله المتوتر، وأشارت بحركة من رأسها إلى الرجلين اللذين كانا ما يزالان يصرخان:

- هل تظن أن هذين الرجلين قد شربا خمراً جيدة بالفعل؟ إنما يتوهمان السكر فقط؛ فمنذ وقت طويل لم أستطع أن أنتج تلك الخمر التي تعرف. غرارة البلح ارتفع سعرها كثيراً، ولم يعد بمقدوري أن أشتري إلا ما يتبقى منه في نهاية الموسم.

- ولكنها مازالت جيدة!

- تعلم أنني لا أسقيك إلا من النخب الأول، أما البقية فإنني أسقيهم خمراً مزيدة بالماء؛ وإلا فكيف يمكن أن أجني ربحاً مما أبيعه إن لم أفعل؟

استمع إلى حديثها باهتمام، وأبدى لها بعض الأسى بمقدار ما جعلها تصدق أنها أزاحت عبئاً ثقيلاً عن كاهلها بالفضضة إليه، ولم يجد ما يختم به حديثه؛ إلا سؤالها عن اسم كلبها الجديد "بوبي؛ أليس اسماً جميلاً؟"، هز رأسه موافقاً، ووضع كأس الخمر أرضاً، وأطفأ ما تبقى من السجائر بجذائه، وانصرف على الفور.

\* \* \*

ربما هي شجاعة السكران أو جبن جراءة متنج، ذلك الذي دفعه إلى اعتراض طريق سيدة كانت تحمل صينية على رأسها، وهي تعبر أحد الميادين الهادئة، ترتدي ثوباً لفته على جسدها بطريقة مهملة كانت أشد إغراءً مما يجب، تمشي متهادية تراقص أردافها، كأنثى إوز بري في موسم التزاوج، وكان أكثر سعادة عندما رمت المصادفة المحضة بوقية عبد الباسط أمامه. جفلت أول الأمر عندما عرفت صوته، ثم جفلت أخرى عندما اشتمت رائحة الخمر تنبعث من فمه. لم يكتثر لتحذيراتها المتكررة حول إمكانية أن تراهما إحدى النساء العائدات أو المتوجهات إلى بيت العزاء؛ فمد يده يلمس أردافها المكتنزة، ولم تحاول مقاومته خوف أن تسقط الأواني من على رأسها، وربما كانت سعيدة بذلك. أبرما اتفاقاً سريعاً بأن تأتيه إلى غرفته المتطرفة، بعد أن توصل أولاني الطعام إلى النسوة المنتظرات.

وقية عبد الباسط واحدة من نساء قرية العيكورة اللواتي لم يتلقين تعليماً، ولم يلتحقن بالمدارس على الإطلاق. والدها الشيخ عبد الباسط البدري، إمام الجامع اليتيم، ومأذون الأنكحة الشرعي في القرية الذي رفض تعليم الفتيات،

ورآه من أعظم مفسد الاستعمار التي جلبها معه ليفسد جبلة أهالي السودان المتدينين بفطرتهم. حرص على تخصيص جزء كبير من خطب الجمعة لتبيان هذا الأمر، والتحذير من مخاطره المهددة بالأمة، ولكنها كانت جميلة ومثيرة؛ وكأن الطبيعة أرادت أن تعاقبه على مخاوفه، وتجعله أسيراً لها حتى وفاته.

عرفت وقية بأمر إغرائها، أول الأمر، من شرف الدين الذي أبدى لها ملاحظته منذ أن كانت في سن السادسة عشر، ولم يكف عن التغزل بمحاسنها كلما رآها، فأحبت منه ذلك، وكانت كلما رغبت في الإحساس بأنوثتها المطموسة في بيت أبيها، تأتي إلى بيت آل بابو الكبير متحججة بشأن اجتماعي ما.

في الغرفة المتطرفة كان شرف الدين يجلس على كرسي من خشب البامبو الفاخر الذي لم يُلْق له أحد من أسرته بالاً، لأنهم كانوا يعتبرونه إحدى تحف الأرستقراطية الخرطومية التي يرسلها تأكيداً على استقرار وضعه المادي هناك، وتعاملوا معه بوضاعة وسخرية، حتى انتهى به الأمر إلى هذه الغرفة التي لا يأتيها أحد، حتى في المواسم الأكثر ازدحاماً، فقط من أجل إجلاله وإبداء الاحترام له كأخ مغترب، وكان سعيداً ببلاهتهم التي أبدوها تجاه أشياءه الثمينة التي كان يرسلها من حين لآخر.

بحث في كل مكان في الغرفة عن كتاب يتشاغل به عن الانتظار الممل؛ فلم يجد غير كتب قديمة قرأها عشرات المرات من قبل حتى ملها: اللامنتمي لكونن ولسون، ورواية مائة عام من العزلة لغارسيا ماركيز، وكتابات التهافت لابن رشد الأندلسي، ومذكرات محكوم عليه بالإعدام لفليكس هيجو؛ لذا فإنه انصرف إلى ترديد بعض الأغنيات التراثية التي يحبها ويحفظها منذ مراحلها الثانوية:

نايرات الوجن  
تومي متين لي يجن؟  
ناموا الخلق والليل جن  
مُرسالي جا، وقال لي: جن  
ماشيات علي يدرجن  
ميهن خُفاف يتبرجن  
ريفات صُغار بنات عجن  
زيّ الجواهر يلَهجن  
من غير شمع هن سرجن  
أخذن معاي ساعتين رجن  
شالن فؤادي وعرجن

في لحظة لم يوقت لها جيداً كان الباب الحديدي يطرق برقة مغرية، ثم ينفتح على مهل، ليجد أمامه وقية في كامل جمالها الأنثوي الذي اشتهاه. دخلت في حذر، وهي ترمي بنظرات خجولة وخائفة إلى الخارج، ثم أغلقت الباب جيداً وراءها، وقبل أن يقدم على فعل شيء من تصرفاته المجنونة، وقفت قبالتها، وقالت في غنج: "أمك توفيت الليلة!" فلم ينتبه لملاحظتها الأخلاقية، وقال، وهو يمرر يديه على جسدها في نهم: "أجل! وأخشى أن نموت كذلك ونحن لم نفعل شيئاً بعد." وبحركة مفاجئة لم يكن يتوقعها أبعدته عنها، وجلست غير بعيد.

- ألا تحترم هذه اللحظات؟
- ليس ذنبي أنك تبدين رائعة في ذات اليوم الذي دفنت فيه أمي!
- ألا تمنح نفسك فرصة أن تحزن عليها ولو قليلاً؟
- لقد منحتها الفرصة الكافية. أبديت حزني منذ أن وطأت أرض العيكورة، وحتى دفنت في سلام؛ فماذا بعد؟
- إنها أمك؟
- وهل تنكرت لها؟
- لم تكن تحبها إذن؟
- أحبها؟ لا أحد يحب أمه مثلي؛ ولكنها ماتت الآن.
- أفلا تبدي بعض الاحترام لموتها؟
- هي تستحق الاحترام فعلاً، ولكن موتها لا يستحق ذلك. لعلها سعيدة الآن بأنها ماتت قبل أن يتهمها أحدهم بقتل عمتي عديلة حرقاً. هل تحاولين التهرب مني؟
- لا؛ ولكنني حزينة من أجل أمك.
- إذن؛ هل بإمكانك أن تؤجلي حزنك حتى نفرغ من هذا؟ مازال في العمر متسع للحزن، ولكن اللحظات الجميلة تنقضي بسرعة.

بحركة فجائية مددها إلى جواره على السرير شبه عارية، وراح يمرر لسانه الرطب على أجزاء من جسدها المتحفز، ولاحظ شوقها المحبى إلى جنونه ورعونته، وأغمضت عينيها في استسلام. اكتشف أن الحزن يهبه طاقة جنسية شرسة، ولم ينس أن يذكرها بملاحظته المعتادة: "لو لم يكن اسمك وقية!"

\* \* \*

- كان على وشك أن يلتمح إلى حرارة الطقس، ليجد مخرجًا ينهي به تلك الليلة، عندما فاجأته بقولها: "الجو جميل هذه الليلة!" فاكتمى بكلمة واحدة "صحيح!" رقداً ممددين على الفراش، وهما ينظران إلى سقف الغرفة الذي لم يكن يظهر منه شيء، وتحدثا عن أشياء كثيرة. شيء واحد تكرر بكثرة في كلام وقية، ذلك الذي أبدت فيه سعادتها الغامرة بعودته بعد هذه السنوات، وهو ما تعمّد تجاهله في كل مرة.
- راحت تجربته أنها لم تستطع التخلص من إحساسها الأنثوي الذي ارتبط به، وكيف أنها ظلت ترفض الخطاب الذين تقدموا لها الواحد تلو الآخر، ووفاة أبيها الذي وفر لها حجة طويلة الأمد؛ إذ لم يكن قد أنجب غير إناث، فتحججت برعاية أمها الضعيفة وأخواتها الأربع. وبحركة مفاجئة، وضعت رأسها على صدره وسألته:
- لماذا يموت الناس؟
  - على الأرجح؛ لأنهم لم يعد لديهم ما يقولونه أو يفعلونه!
  - أتدري؛ عندما مات أبي حزنتُ كثيراً، ولكن جزءاً مني شعر بالسعادة. ترى هل كنتُ آثمة؟
  - لا أظن ذلك.
  - ولماذا لا تظن ذلك؟
  - لأن جزءاً مني يشعر بالسعادة لموت أُمي كذلك.
  - حقاً؟
  - أجل! الموت شيء مخيف لنا، ولكنه شيء مريح للأموات، أفلا نسعد لراحتهم؟
  - معك حق.

لم يعرف ما إذا قالت ذلك لأنها أدركت حقيقة الأمر فعلاً، أم أنها لم ترغب في مواصلة الحديث حول الموت، ولم يجتهد كثيراً للتأكد من ذلك. اكتشف، وقتها، أنه لا يجذب ممارسة الجنس في الأجواء الحارة، فقط أغمض عينيه مكتفياً بالنشوة التي اعترته عندما بدأت تدغدغ شعر صدره المبتل بالعرق. كانت رائحة القونقليز تساور أنفه بين الحين والآخر؛ فيتذكر صراع أمه المحتدم مع الموت، ويشعر بالشفقة تجاهها. عرف أنه سوف يفتقدها كثيراً؛ لاسيما عندما يُصاب بالملل كما هو الآن.

\* \* \*

لابد أن وقية عبد الباسط غادرت أثناء غفوته؛ فلم يشعر برحيلها. وجد نفسه عاري الصدر، ولم يستطع تخمين الوقت بشكل قاطع. خرج من الغرفة التي كانت كقبر متوهج بالعمّة والحرارة. مرت نسيمات باردة، عبر فناء ضيق يفصل

بين غرفتين، أثلحت صدره المبتل بالعرق؛ فأحس بدغدغة خفيفة منحته الشعور بالراحة واللذة. وعلى جدار بعيد لمح ظل سيدة يمر؛ فعرف أن الوقت مازال مبكرًا، وأن سكان المنزل مازالوا أحياء؛ هكذا كان يُسمِّيهم، ولا يفرق بين قبائل النيام والموتى؛ يصنفهم جميعًا في خانة واحدة، وله حكمته الخاصة من ذلك.

كانت خمر أكيج الجنوبية ما تزال تعمل في عقله، عرف ذلك من الصعوبة التي واجهته في المشي مستقيمًا؛ فابتسم وهو يُكرّر: "لا يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم!" عشرات الكرات المطاطية المجنونة تتقاذف بين جدران دماغه، مُحدثّة شعْبًا ممتعًا افتقده منذ سنوات. رسم صورة متخيلة لأكيج على الجدار، وراح يقبلها في امتنان، ثم اختتم قبالاته قائلاً: "ليس باستطاعة أحدهم أن يمنحني السعادة الخالصة كما تفعلين." وقرر على الفور أن يشتري لها جوالين من البلح الجديد صباح الغد، قبل أن يتذكر أن موسم البلح قد انقضى منذ شهرين.

عزلته طوال السنوات التسع الماضية جعلت منه كائنًا مستوحشًا، وهو ما تأكد له منذ وصوله إلى القرية. شعر أنه داخل بئر من الصفيح؛ إذ لم يكن في مقدوره احتمال أكثر من صوتين بشريين في وقت واحد، كما أنه لم يجد نفسه منسجمًا مع حركة الجماعة؛ فكانت ردود أفعاله تأتي متأخرة نوعًا ما، ففي إحدى المرات التي صاح فيها جماعة من المعزين الجدد: "الفاحة!" تطلب الأمر أن ينبهه ودالنيم إلى ضرورة أن ينهض ويتقبل العزاء منهم. أنهى حوارهم ومغازلاته الجدارية، وتوجه نحو مصدر الأصوات البشرية الآتية من وراء أحد الجدران.

تجلس فتحة وزوجها حامد ودالنيم وأبنائهما في جهة واحدة من الصالة العائلية، بينما جلست كل من أختيه: نعمات وعواطف في الجانب المقابل. توقفوا عما كانوا يتحدثون عنه عندما وقعت أعينهم عليه، وفي لحظة واحدة تقريبًا طرحوا عليه السؤال ذاته: "أين كنت طوال الوقت؟"

بدا الأمر أشبه بمحيم كورالي فتح أمامه؛ إذ لم يكن قد هيا نفسه للإجابة عن هذا السؤال، فرمق الجميع بنظرة خاطفة، حتى استقرت أخيرًا في عيني أخته فتحية: "نمت قليلًا في غرفة الكراكيب!"، فهزت عواطف رأسها وكتفيتها: "ألم أقل لكم لا بد أنه هناك؟"

لاحظ أن وجوههم لا تزال واقعة تحت تأثير الحزن، وقد احمرت أعين البعض من البكاء؛ فمسح شعره بإهمال، وجلس على أقرب كرسي وهو يقول: "هل غادر المعزون جميعًا؟" ظنوا أنه يسعى إلى التحقق من خلو الدار منهم؛ فأسرعت نعمات بالإجابة: "بعضهم ينام في الداخل؛ إياك أن تتفوه بكلمة خرقاء."

في تلك الأثناء كان أحد أبناء أخته يتبول على جدار قريب، فضحك ضحكة عالية أنهاها بسرعة عندما أخذوا يرمقونه بنظرات مُعاتبّة أو غاضبة؛ وكأنه تفوه بمرطقة. لم يعلم ما إذا كان وجومهم ذلك بسبب حرمة الحداد أم بسبب وجود ضيوف نيام بالداخل؛ فاعتذر مبرّرًا: "عفوًا، رأيت الأمر مضحكًا" غير أنهم لم يروه كذلك، فقط قامت نعمات مسرعة إلى ابنها، وضربت على أردافه العارية، وأخذت توبخه بشدة على فعلته، فما كان منه إلا أن رفع عقيرته بالبكاء، ولم يرمقه أحد بذات النظرات المعاتبّة أو الغاضبة؛ فعرف أن وجومهم له كان بسبب حرمة الحداد.

حدد شرف الدين موقفه من الأطفال منذ وقت طويل، فلم يكن يحبهم أو يلاعبهم أو حتى يراهم مخلوقات ملائكية كما يراهم الجميع، وواحدة من أسباب فشل علاقاته العاطفية كان حرصه على وضع عدم الإنجاب شرطاً مبدئياً لتتويج العلاقة بالزواج، ولم تكن غالبية اللواتي عرفهن ليوافقن على شرط كهذا، الأمر الذي جعله يخلص إلى أن الزواج بالنسبة للنساء ليس سوى وسيلة لتحقيق أمومتهم؛ وإن كانت ستأتي خصماً من حياة زوجية سعيدة، فرأى في الزواج استغلالية أنثوية، ومشروعاً فاشلاً قد يدفع ثمنه من حريته وراحته، فقرر أن يعيش ما تبقى من عمره حصوراً، بلا امرأة تشاركه حياته التي أراد لها أن تكون هادئة وسعيدة ما أمكن.

يذكر في مآدبة عقيقة قديمة، أنه أخذ صاحب الوليمة، وتنحى به جانباً، بطريقة درامية، وأسر إليه بشيء كاد أن يكون سبباً في خصومة أسرية لا مانع لها؛ إذ نصحه ألا يتردد في تشبيه ابنه المولود بأمه إذا ما سألته زوجته عن ذلك، وفسر نصيحته بأن النساء يرغبن دائماً في إثبات شبه أطفالهن بأبائهم، ليس لشيء، ولكن لأن ذلك أقرب إلى وصفهن بالعفة والشرف، وتأكيذاً على أنهن لم يأتين رجلاً آخرين، بينما قد يعتبرن تشبيه الأطفال بأمهاتهن اتهاماً ضمناً بالخيانة الزوجية، حتى وإن كان ذلك بدواعي الرومانسية التي لا مكان لها في مثل هذه المواقف المصيرية. لم يستشعر يوماً أي عاطفة أبوية تجاه أبناء أخواته، ورغم أن الأمر يشعره بشيء من الضيق من وقت لآخر؛ إلا أنه تصالح مع هذا الوضع، ووطن نفسه عليه. الشيء الوحيد الذي وجدته إيجابياً كان انصراف أخواته كلياً إلى تربية أبنائهن، وانشغالهن بذلك عن مطالبته بالزواج؛ إضافة إلى مناداتهم له (بحالو) ذلك اللقب الذي وجدته محبباً، وفيما عدا ذلك فإنه لم يكن متحمساً لفكرة تزويج أخواته، كما أنه لم يكن حريصاً على ملاحظة تركة الجينات كما يفعل الجميع: له عيني جده، وأنف أمه، ومشية عمته، ولون بشرة جدته ... إلخ.

\* \* \*

نعمات بابو الأخت الوسطى الأكثر شبهاً بأمها، والأقل جمالاً بين بقية أخواتها، كانت أكثرهن نشاطاً في الشؤون المنزلية، ونادرة تلك اللحظات التي يمكن رصدها وهي في حالة استرخاء أو سكون، لا تمل العمل أبداً، وهي دائمة التجديد، فتقوم بتغيير أمكنة أثاثات المنزل بين الفترة والأخرى؛ حتى وإن اضطرت في سبيل ذلك على إرغام كل من في البيت على العمل.

تحرص على تغيير الملابس والستائر بانتظام؛ لاسيما في المواسم والمناسبات الخاصة، حتى في أحلك المواقف تجدها تهتم بأدق التفاصيل. يصفها شرف الدين بأنها منظمة حد الملل، كما أنها لم تكن تسمح لأبنائها بأن يخرجوا إلى الضيوف غير متعطين أو مهندمي الثياب. ربما رأت في ذلك وسيلة تعرض فيها الجانب الجمالي الذي تفتقده في نفسها، كانت تتعامل مع أبنائها وكأنهم نماذج مصغرة عنها، فتلزمهم بأن يكونوا دائماً في أروع صورة، وكان ذلك يرهقهم كثيراً.

"الانتماء إلى عالم فيه نعمات يعني ألا تطمئن إلى شيء مطلقاً" قالها في سره، وهو ينظر إليها، وفي عينيه ترسم علامات إشفاق قديم. دائماً ما كان يردد متندراً: "من الجيد أنها لم تعش في عصر الفراعنة؛ إذن لألزمهم بتغيير مكان الأهرامات وأبو الهول في كل مناسبة!" ولأن الطبيعة تميل دائماً إلى الاعتدال والتوازن؛ فإن زوجها الشفيق حاج مرضي كان على النقيض منها تماماً، وما أكثر ما تندرته عائلة بابو بهذه المفارقة العجيبة.

أما عواطف، المصابة بتساقط الشعر، فقد حملت من اسمها الكثير؛ إذ كانت عاطفية وحاملة. ظلت تحاول زرع بذور الرومانسية في صدر زوجها عبد المنعم شكرالله؛ فلا تحصد منه غير رعونة الطباع، وجلافة المواقف. أشيع في العائلة أن جلافة عبد المنعم كانت السبب وراء إصابتها بالاكتئاب والإحباط، وأن ذلك تسبب في تساقط شعرها بغزارة، ولكنها ورغم كل ذلك لم تياس أبداً من محاولاتها المستميتة في سبيل ترويض زوجها؛ فتسعى للاحتفال بكل مناسبة، مهمة كانت أم غير مهمة: كذكرى زواجهما، وذكرى عودتهما من شهر العسل، وأول مرة ركباً فيها الخيل سوياً، وأول نبتة أزهرت في المنزل بعد زواجهما، وأول خلّي اشتراه لها، وأول يوم تقابلا فيه، وهو يزجرها بجفاء:

"أيّ ذكرى؟ لقد تقابلنا على ظهر معدّية بائسة وقذرة ذات ضجيج عال في ظهيرة قائظة، وروائح العرق النتنة تفوح من آباط الناس والبهاائم، ولا أتذكر ذلك اليوم إلا ويتجدد غليان الدماء في نافوخي!"

عمّ سكون لم يكن يخترقه إلا بقايا بكاء ابن نعمات التي راحت تبدل له ملابسه المبتلة بأخرى جديدة، وما إن انتهت حتى تكلم شرف الدين: "سوف أغادر غداً صباحاً إلى الخرطوم؛ فمن منكن سوف تتطوع بإيقاظي؟" لم يقع كلامه موقع الرضا والقبول من الجميع؛ فراحوا يلومونه على قراره المتعجل بالمغادرة:

"كيف تقضي يوماً واحداً فقط في عزاء أمك؟ ماذا سيقول الناس عنا؟ وماذا عن الذين سيأتون غداً من رفاعة والكاملين والهلالية وسوبا لتعزيتك؟ ماذا سنقول لهم؟ ألا تدعك من جنونك هذا؟"

لطالما أهمل مثل هذه الأمور، ولم يلق لها بالاً، ويتعجب حرصهم البالغ على إرضاء الآخرين. "ليس من واجبي أن أهبهم الإحساس بأداء الواجب والرضا عن أنفسهم. إن كانوا قادمين من أجل أمي؛ فعليهم أن يتوجهوا إلى قبرها حيث ترقد، ويقرؤوا الفاتحة على روحها هناك؛ فلا شأن لي بهم." قذف جملته في هستيريا غاضبة على وجه الجميع، وأقبل راجعاً إلى غرفته حيث كان.

في طريقه إلى الغرفة؛ لم يتوقف عن كيل السباب واللعنات للساعة التي قرر فيها الجيء إلى العيكورة، وازدادت حدة غضبه عندما أحس بتلاشي مفعول الخمر في رأسه. ساءه إصرارهم على جذبه نحو أوهامهم الفارغة، واهتماماتهم السخيفة والمملة، ومحاصرهم له بتصوراتهم البدائية عن الناس والأشياء:



"هل يتوجب عليّ أن أبكي كالأطفال ليعلم الجميع مقدار حبي لأمي؟ هل يجب أن يعرف الآخرون ما إذا كنتُ أحبها أصلاً أم لا؟ هل يجب أن أظهر ذلك حقاً؟ لماذا يُصرون على تجسيد الحزن في شكل حركات وإيماءات عقيمة الجدوى والفائدة؟ لماذا يجب أن تتوقف حياتنا لثلاثة أيام بالتحديد؟ بل لماذا يجب أن تتوقف حياة الأحياء هنا؛ بينما تبدأ حياة الأموات هناك؟ بأيّ ميزان يزن هؤلاء الأمور؟"

دخل الغرفة، ومارد ما يتخلق في صدره غيضاً وحنقاً، لم يُدر مفتاح الإنارة وراءه، وتوغل في جسد الغرفة المظلمة كدودة أسكارس عمياء تتخبط في طريقها داخل أحشاء أحدهم. عشر عشرات المرات قبل أن يقف أخيراً أمام النافذة المطلة على الشارع، أزاح ستارها الخفيف؛ فتسلل ضوء البدر شبه المكتمل إلى وجهه الغاضب، وراحت نسيمات الهواء الباردة المعبأة بالرطوبة تلعب في ملامحه الحانقة، كأثنى لعب تحاول تهدئته دون جدوى، حتى أنفاس البرنجي التي دخنها بشراهة متسريعة لم تجد نفعا في كظم غيظه.

القرية تقبع في هدوء مخيف داخل كرش الكون المظلم، ونباح الكلاب البعيدة تنبه في هدوء متناقل داخل النسق الزئبقي للكون، وظلال أشجار المجليلج الرمادية تتقافز كالأشباح في كل مكان، وتمر أمام ناظره دون أن يلقي لها بالاً. نظر بعيداً إلى نقطة ما في سماء العيكورة المليئة بالنجوم والخرافات. خطرت في باله عشرات الذكريات التي لا طعم لها، ولا رائحة. بطريقة غير مبررة مرت بذهنه صورة لأطفال صغار يلعبون ألعاباً شعبية حميمة. كانت أصواتهم تأتيه وكأنها خلف النافذة تماماً، فابتسم بهدوء وهو يراقب ضوء القمر الخافت الخجول، وأخذ يُردد بصوت خافت: "يا قَمَرًا .. أَقْلِبِي السَّنَسَنَ الحُمْرًا .. شُوفِي لِيه مَآ جَا" شعر بأنه يشاركهم اللعب بطريقة تخاطرية، وأحس بسعادة غامرة لذلك، ثم وبعد دقائق، وقف على أطراف أصابعه، ورفع ذراعيه بأقصى ما يستطيع، وكأنه يحاول الطيران؛ تمطى قليلاً ثم نام.

## الفصل الثالث

# الفوضى تقبع خلف أغصان الجميز

قد تسقط حصاة صغيرة قبل أن يحدث انهيار صخري مروع، سيكون ذلك، إذن، علامة تحذير لا يُستهان بها. لابد أن نعطي كل لحظة حقها من التأمل، وأن نعيشها كما لو كانت آخر اللحظات. الأشياء مستقلة عن بعضها، ومتراصة في ذات الوقت؛ تمامًا كخزرات السبحة، حيث تصلح كل خرزة منها أن تكون نقطة نهاية أو نقطة بداية. نحن فقط بغرورنا نميل إلى افتراض بدايات الأشياء ونهاياتها الحتمية. لا شيء حتمي على الإطلاق؛ ثمة فوضى تتحكم في كل شيء، والنظام الذي نتوهمه هو أصل الفوضى ودلالته الصورية. الأشياء تحمل خلاصاتها داخلها، نحن الذين نحب أن نراها مُعقدة حتى نقنع أنفسنا بأننا ننجح في حلها؛ هي محلولة فعلاً!

قبل سنوات لم يكن لشرف الدين رغبة في فعل شيء، ولا يتذكر أنه حلم بشيء قط. كل ما أراده هو أن يجد أنثى بسيطة، يضع رأسه بين ثدييها، ويحكي لها عن تفاهاته ونزواته واختلافه عن الآخرين، وعندما أمكنه فعل الشيء ذاته مع حسن البلولة فإنه لم يفكر في أي أنثى. الحقيقة أنه لم ير نفسه مُحبًا للإناث بصورة عامة، إلا فيما يرتبط برغباته الوحشية الطارئة، كان يراهن ككائنات غريبة ومخادعة، ويقول دائماً: "المرأة لا تصدق أبداً حتى مع نفسها، اللحظة الوحيدة التي تكون فيها صادقة هي عندما تغضب؛ عندها تقول كل الحقيقة." ولم ير في فتيات القرية من تحرك فيه شيئاً آخر غير شهوته، كن كلهن بالنسبة إليه كائنات منزلية أليفة، يمكن الاستغناء عنها في أية لحظة.

كان شرف يجالس حسن البلولة كثيراً؛ لاسيما في تلك اللحظات التي اختصها لنفسه، ولم يعرف قيمة الصمت، إلا عندما خانته الثروة. تحدث معه عن نكساته الكبرى، وعن عزلته التي كانت تضيق عليه حتى أخذته إلى الداخل: قرياً من نفسه وبعيداً عن الآخرين. أسرَّ إليه عن فساد الذات عندما تختلط بالآخر، وكيف أن الآخر دائماً ما يكون المتسبب في فقدان صفاتها الفطري.

نظر إلى الدنيا بعيني محتضر؛ فوجدها تقبع في هدوء يُقلل من قيمتها، وتضيق لتصبح بحجم إنسان! "حتمًا ستكون صادقاً عندما تخلو مع نفسك، وفي حال وجود شخص آخر؛ فعلى الأرجح أنت مُجامل، ولكن عندما تكون في جماعة؛ فأنت كاذب لا محالة." قالها ولم يُخف استياءه من النتيجة النهائية المترتبة على ذلك.

\* \* \*

حسن البلولة، الشاب ذو العينين المذهولتين دوماً، والشعر المجعني الناعم، والجسد الأسمر الناحل، من القلائل الذين ذهبوا إلى العاصمة، وعاد بعد سنتين فقط من التحاقه بجامعة السودان، ولا يعلم أحد من سكان العيكورة لماذا عاد، ولكنه لم يعد من العاصمة كما ذهب إليها. حياته بعد عودته من الخرطوم كانت محاطة بسرية غامضة، وحيكت حوله الشائعات والأكاذيب، ولم يستطع أحد أن يجزم بشيء مما يقال.

الشائعات كائنات ذاتية التكاثر، يكفي فقط أن تخرج الشائعة من فم هازل؛ حتى تكون لها حياتها الخاصة ونفوذها البشع. للشائعات قداسة كقداسة الحقيقة تمامًا؛ بيد أنها تبدو أكثر هيلمانًا وسطوة؛ نظرًا لطبيعتها الأسطورية. الشائعات، كالصعقة الكهربائية، إذا أصابت أحدهم، فسوف تنتقل إلى الآخر بمجرد ملامسته، إنها كأساور الشرطة التي تضيق على المعصم كلما حاول المسجون فكها أو التخلص منها.

استشعر حسن البلولة شيئًا من الفخر أو المسؤولية عندما اكتشف خصوصيته لدى شرف الدين، وهو الذي ينبذه الآخرون، ولا يحبذون الاختلاط به. لم يأبه كثيرًا لمعرفة السبب، ولكنه كان سعيدًا برفقته؛ رغم كل شيء. لم يكونا يلتقيان إلا في كمائن الطوب الأحمر أو حقول القصب. أحب الدهشة التي يخلقها له في كل مرة يتحدث فيها عن العيكورة وأهلها، وعن الإنسان والأشياء، وعن الله والكون.

كل منهما وجد في الآخر شيئًا اكتشف أنه كان بحاجة إليه: هو لم يكن يعرف أنه بحاجة إلى سماع الثرات، وشرف الدين نفسه لم يعرف أنه يحتاج إلى أحد يسمعه. اكتشفا ذلك بمحض المصادفة، ولم يتوقفا كثيرًا ليتساءلا عن سر التقائهما الآن فقط؛ رغم أنهما من قرية واحدة، ويعرفان بعضهما منذ زمن طويل. ابتسم شرف الدين لصديقه البلولة مرة وقال:

"الآخر هو نحن يا البلولة! ولكنه الجانب السيئ منا. قد تعيش سعيدًا حتى تلك اللحظة التي تجد فيها فتاة تعجبك؛ فتحبها، ومنذ تلك اللحظة، بالتحديد، تبدأ التعاسة في حياتك. ماذا سيحدث لو لم تقابل تلك الفتاة؟ هل حدثت مسار حياتك القادمة بطريقة ما؟ حتى وإن لم تكن تعي ذلك؛ فإنها تفعل ولا شك! تكون جالسًا؛ تقرأ في كتاب لا يُحرك فيك إلا دماغك، فيأتيك أحدهم، ويتحدث عن أشياء خرقاء لا تحب ولا تهتم لسماعها، فإن كنت صادقًا مع نفسك فسوف تلطمه أو تصرخ في وجهه؛ وإلا فإنك سوف تضطر لرسم ابتسامة مجاملة، لا معنى لها سوى أنه نجح في إخراجك من عالمك الخاص، وجرك إلى عالمه. تشعر بالضيق وعدم الرغبة في الكلام، هذا يحدث لنا كثيرًا؛ بل ونحتاج إليه في أوقات كثيرة. تنصرف، عندها، إلى النظر في ذاتك وفي أشياءك الخاصة، فيمر متطفل ما، ويلقي عليك التحية؛ فتجد نفسك مجبرًا على الخروج من عزلتك لترد عليه التحية.

الخروج من العالم الخاص سهل، يكفي فقط إلقاء التحية لجعله يحدث، ولكن الدخول إليه ليس بالسهولة التي تتصور. وبينما تجاهد أنت في إصلاح ما أتلغه، يكون هو سعيدًا لأنه نال حسنة بأقل مجهود! لو لم يكن هنالك آخر لما وجدت الحركة. الآخرون هم من يجعلون الأحداث تحدث، وجُلُّ هذه الأحداث لا تكون برغبتنا، ولا حتى برغبتهم."

هز البلولة رأسه بشدة، مؤيداً كلام شرف الدين، ورسم ابتسامة عنت أنه مقتنع؛ بل ومندھش من بساطة الفكرة التي غابت عنه، ولم يكتشفها إلا تَوَّأ. هذا ما كان يبقيه على تواصل دائم معه؛ رغم أنه غالباً ما يفاجئه بأفكار غامضة ومخيفة:

- هل تعرف الفرق بين الحب والجنس والزواج؟

!! -

- هل تعرف الفرق بين الله والخير والشر؟

!! -

- الحقيقة لا يوجد بينهم فرق على الإطلاق: (الحب) تعبير لغوي عن علاقة ما، تربط بين الجنس والزواج، تماماً كما أن (الله) تعبير لغوي عن علاقة ما، تربط بين الخير والشر. لكي تمارس الجنس يجب أن تتزوَّج، وعندما تتزوَّج تمارس الجنس مع زوجتك؛ هذا هو الحب! الزواج مجرد فكرة جهنمية للربط بين الحب والجنس حتى يبدو الأمر في مظهره الإنساني البراق؛ ولهذا فإن من يمارس الجنس دون زواج يُسمى مجرماً، لأنه لا يمكن أن تمارس الجنس دون حب، ولأنه لا يُعقل أن تحب كل من تمارس معها الجنس، ووراء صراع الخير والشر تكمن الفكرة الجهنمية لله!

منذ أن عاد البلولة من الخرطوم، عاش حالة من التيه. جاب القرية طوَّلاً وعرضاً، هام على وجهه كالممسوس، قطع ظهر النيل الأزرق إلى الضفة الأخرى، ثم عاد، ثم غاب مرة أخرى، وافتقده الناس. قال بعضهم أنه توجه إلى قرية الشيخ طه، وقال بعضهم أنه ذهب إلى الحصاحيصا، بينما خمن آخرون أن يكون قد عاد إلى الخرطوم، واختلفوا حول ذلك إلى أن وجدوه، أخيراً، نائماً في إحدى جداول حقل القصب. مشى على رمضاء العيكورة، وقطع ميادينها وحقلها حتى تشققت قدماه.

بعض نساء العيكورة استخدمته في مشاريعهن الخاصة والسرية، ورأوا أنه لا خوف منه على الإطلاق، فكان يدخل عليهن بلا استئذان، ويشهد جلسات نزع شعر الجسم بالشمع العسلي، والتي تتم في جلسات جماعية، تتناقل فيه النساء النيمة والأخبار الماجنة، ويجهز حفر الدخان للفتيات اللواتي على وشك الزواج، ويحضر تدريبات رقص العروس السرية للمساعدة في أي شيء قد تحتاج إليه النساء أو العروس بصفة شخصية، ينقل أغصان القش اليابس التي تستخدم في المطابخ التقليدية، ويحلب الأغنام، ويساعد في تلقيحها الإتان بالحمير، وكذلك الأغنام بالتيوس. يفعل كل شيء، وأي شيء، طالما أن رغبة الهروب لا تراوده.

حاولوا مساعدته على الخروج من وحدته، ذهبوا به إلى قبة الشيخ أبو صباح في الهلالية، وقرأوا عليه التعاويذ، وصنعوا له الأحجية والتمائم؛ فلم تفلح. ثم ذهبوا به إلى قبة الشيخ أب شرا، وطافوا به على شيوخ أبو حراز. عفروا رأسه

بتراب القباب، وغسلوا جسده الأسمر الناحل بالزيوت المباركة، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل؛ بل زادت الأمر سوءاً. ذكروا أن جنية شبة لعقت فمه وهو نائم، وأن إحداها تنعلت بعضوه الذكري كحشرة طفيلية ملعونة، فلم يستطع الخلاص منها، ولكن كل ذلك كان محض تكهنات لم يكن بوسع أحدهم الجزم به على الإطلاق.

\* \* \*

كان خبراً اعتيادياً أن ينجح أحدهم، وينتقل للدراسة الجامعية في الخرطوم، ربما لأن التعليم نفسه لم يكن ذا شأن عظيم في العيكورة. يتنافس أهالي القرية على الزراعة، وحديثها يغلب على الألسنة في المجالس، ومؤخراً كانت التجارة أهم من أي شأن آخر، حتى غدت غيطان البرسيم والباذنجان مهجورة تنعق فيها الغربان، وتتكاثر فيها الثعابين غير السامة. قلة من النساء فقط من بقين على مهنة الزراعة، في حين انصرف جُل الرجال إلى التجارة والربح السريع. يتكلم أهالي العيكورة بكثير من الفخر والغيرة عن مختار عوض الجيد، وما جناه من أرباح طائلة من بيع الفول والسعوط، وتوسعه في التجارة، والمحال التجارية التي يملكها في الخرطوم، وكيف أنه مد يده لأبناء عمومته، ونقلهم معه إلى هناك، بينما تعتربهم الشفقة كلما جاء ذكر حسن البلولة، وما جرى له. حاول الجميع أن يعرفوا شيئاً عن دراسته، ولكنهم أخفقوا؛ رغم أنه كرر لهم ذلك أكثر من مرة، واقتنعوا في نهاية الأمر أنها دراسة ليست ذات جدوى:

- ماذا تعني كلية الفنون الجميلة يا البلولة؟
- إنها كلية تدرّس الفن التشكيلي.
- يعني؛ ماذا ستكون في النهاية بعدما تتخرج؟
- لم أحدد بعد، ربما أكون فناناً تشكلياً أو نحاتاً، يجب أن أصقل موهبتي بالدراسة أولاً، ثم أحدد ما يجب أن أكون عليه.
- نحاتاً؟ هل هذا يحتاج إلى دراسة؟ ود ضيف الله النقاش لم يكمل تعليمه الابتدائي، ورغم ذلك فهو أشهر نقاش في المنطقة!

كانوا مقتنعين بأن التعليم قد أفسد عقله، وازدادت قناعتهم تلك عندما عاد إليهم كالمعتوه، يهيم على وجهه في ميادين القرية، وحقوقها المهجورة، يجر وراءه عصي من الخيزران. قالوا: "ها قد أصبح فناناً تشكلياً كما أراد!" كان على وشك أن يدس كرة السعوط داخل فمه، عندما سمع جلبة قادمة نحوه، فعرف أن مظاهراً ما تتخلّق داخل الجامعة. انتقل من مكانه ذلك إلى ركن قصي، وتناول الكرة وقذفها في فمه، وراح يعالجها بلسانه حتى استقرت أخيراً في مكان ما من لثته الداخلية. لم تكد النشوة تبلغ مداها حتى تصاعدت الجلبة مرة أخرى، أعلى من ذي قبل. ثم

رأى جموع الطلبة، وهي تركض بلا هدى وبلا هودة كقطع من الجواميس البرية التي فقدت صوابها، ثم سمع صوت فرقعات مجلجلة، تبعثها سحب دخانية بيضاء أصابت عينيه وجهازه التنفسي. على الفور مد يده واقتطف غصناً من شجرة نيم قريبة، وضع أوراقها على أنفه وركض مع الراكضين. سمع من خلفه نداءات رجال الأمن: "حاصروهم، اذهبوا من الجهة الأخرى." ووراء تلك النداءات المستيرية ارتفعت أصوات سيارات الشرطة، وطققة الأجهزة اللاسلكية، وصياح الفتيات، وأصوات أخرى لم يتعرف عليها جيداً، غير أنها كانت متناغمة تماماً مع كل ما يجري.

فجأة؛ وجد نفسه محاصراً بين عدد من رجال الأمن. دفعته غريزته إلى المقاومة، ولكنهم انحالوا عليه ضرباً بالعصي، حتى خارت قواه، وسقطت من فمه كرة السعوط مختلطة بلعابه والدماء التي بدأت تسيل من فمه. حملوه من طرف قميصه، وقذفوا به داخل إحدى السيارات المكشوفة، وأجبروه على التمدد. اكتظت العربة بعشرات الطلاب المعتقلين الذين تكدسوا فوق بعضهم كشحنة من القرديس الحي، رفع رأسه محاولاً توضيح الالتباس، فعاجلوه بضربات سريعة وموجعة من عصيهم الغليظة؛ فاستسلم على الفور لمصييره.

\* \* \*

في مكان آخر؛ بدأت سيارات الشرطة المحملة بالمعتقلين تتوافد خلف بعضها أمام مبنى أخفت أغصان الحمير المتشابكة الكثير من معالمه. فتحت أبواب السيارات المكشوفة، وأجبر من فيها على النزول إما ضرباً بالعصي أو ركلاً بالأقدام، وسبقوا إلى داخل المبنى مطأطيء الرؤوس، وأخذ الجندي الذي يقف على البوابة يختم ظهر كل داخل منهم بضربة من سوطه الذي من جلد البقر.

احتشدوا في فناء المبنى المغطى بالحشائش القصيرة، والعشب الرطب، ولم يُسمح لهم بالجلوس. سور المبنى عال ومنته بفوانيس إضاءة من تلك التي خلفها الاستعمار البريطاني وراءه، وتناثرت القطط على السور، وكأنها جنود مرابطة تحرس المكان. كانت بعض القطط تنظر إلى ما يجري بفضول مشاغب، فيما انشغل بعضها الآخر بتنظيف نفسها، وكأنها معتادة على ذلك، بل وتعلم ما سيجري لاحقاً.

بصورة مفاجئة خرج أحد الجنود من داخل المبنى حاملاً حزامه العسكري الغليظ، وبدأ يضرب الطلاب ويكرر: "أرضاً .. أرضاً" حتى أولئك الذين استفادوا مما جرى لمن سبقهم، وسارعوا بالجلوس، لم يسلموا من حزامه المجنون. وقف غير بعيد، وهو يمرر بصره الحاد على الجميع، ثم زفر زفرة حانقة، وعاد إلى داخل المبنى.

أمضى الطلاب ساعتين في ذلك المكان المبتل، قبل أن يخرج عليهم رجل لم تبد عليه أي ملامح عسكرية قاسية؛ بل بدا مرحًا خفيف الظل وصاحب نكتة. كان مهندسًا، معتنيًا بحلاقة ذقنه، يرتدي ملابس أنيقة اجتهد في تناسق ألوانها. وقف أمام طاوور الطلاب، في المنتصف تمامًا، وبدأ حديثه، فكان صوته أكثر رقة من مظهره:

"دعوني أولاً أعرفكم بنفسي: أنا عدو الفوضى والشغب الأول، لا أكره شيئًا في حياتي كلها كما أكره الفوضى والمرجلة. كانت أمي ترضعني حليبيها في مواعيد منتظمة ومحددة، ومنذ ذلك الوقت وأنا أحب النظام والانضباط. بالتأكيد تعلمون لماذا أنتم هنا، أنتم هنا لأنكم فوضويون ومثيرون للشغب، وفي هذا المكان سوف تتعلمون كيف تحترمون النظام وتحبونه، ولن تخرجوا من هنا قبل أن يحدث ذلك، كونوا على ثقة."

نفض حسن البلولة بسداجة القروي، وقد توسّم خيرًا في هذا الشخص المحب للنظام. تخمّن أنه إن عرف قصته فقد يأمر بخروجه في الحال، لأن وجوده مخالف للنظام: "أنا لم أفعل شيئًا سيدي، كل ما فعلته أنني كنت جالسًا بمفردي، أكوّر السعوط، وحتى عندما عرفت بأمر المظاهرة غيّرت موقعي على الفور، ولكن الأمر حدث بسرعة، ولم أستطع فعل شيء، وهأنذا أمامك الآن. صدقتي أنا لم أفعل شيئًا." حلق الرجل في وجه حسن البلولة، وكأنه يريد أن يرسم له صورة في ذهنه، ثم طفت ابتسامة باهتة على محياه، وأشار إليه بيده أن يتبعه، وهو يقول: "يبدو أننا ظفرنا بأول محب للنظام!"

\* \* \*

قاده معه إلى داخل المبنى، فيما أمر الجنود باقتياد البقية إلى مكان آخر، سمّاه "لوكاندة". في إحدى المكاتب كان ثمة رجال عراة الصدر يقفون دون حراك، وأجسامهم العضلية توهي بالغضب والشراسة. جلس على كرسيه خلف المكتب، وأشار إلى البلولة بالجلوس قبالة؛ ففعل.

- ما اسمك؟

- ... حسن البلولة

- قلت إنك كنت تكوّر السعوط إذن يا البلولة؟

- أجل سيدي، هذا كل ما كنت أفعله عندما اندلعت المظاهرة.

- ألا تعلم أن السعوط مضر بالصحة؟ وعندما تنتهي منه أين تبصقه؟ على الأرض؟

- أنا ...



- هذا تصرف غير مسئول، وهو ضد النظام. هل تحب النظام؟
- بالتأكيد أح... .

فاجأته صفعه قوية على قفاه، كانت كأنها صفعه من إله غاضب أو كائن ماورائي مُهتاج. وجد نفسه يهوي على المكتب الذي أمامه، ثم يرتد في حركة ميكانيكية سريعة؛ ليجد اليد الخرافية بانتظاره مرة أخرى. حاول أن ينظر وراءه ليعرف مصدر الصفعات، لكنه لم يستطع. ثم توقف الصفع فجأة كما بدأ.

- رجالي يقولون إنهم أمسكوا بك وأنت تحرض الطلاب في أحد أركان النقاش على الخروج في المظاهرة.

- أنا؟ أنا لست ط... .

عاودت اليد الماورائية صفعه، وهذه المرة كانت الصفعه تغطي جزءاً من أذنه، حتى سمع طنيناً مزعجاً ومتواصلًا، أفقده السمع لبرهة. كان صوت الرجل المهندم من وراء المكتب يأتيه من مكان سحيق، ثم أخذ الصوت يزداد وضوحًا شيئًا فشيئًا.

- هل أنت شيوعي يا البلولة؟
- شيوعي؟ أبدًا
- إذن فأنت مثلي؟
- ماذا؟
- اعترف .. أيهما أنت؟
- لست مثليًا سيدي.
- إذن فأنت شيوعي!
- ولست شيوعيًا كذلك.
- للأسف .. لا تريد أن تبدي ولو قليلًا من التعاون. لا بأس سنعرف حاليًا ما إذا كنت هذا أم ذاك.

أشار بعينه إلى المخلوقات الماورائية التي كانت تقف خلفه مباشرة؛ فأمسكت بعضها بتلابيبه، وبعضها أمسكته من عضوه الذكري. رفعته عاليًا، ثم قذفت به إلى ركن ما من الغرفة الخاوية من الأثاث. أخذ الرجال في خلع ملابسهم، فحفظت عيناه في خوف. نحض وحاول الهرب، ولكنهم أمسكوا به كجراد يئس أوقعه حظه العاثر بين أرجل الأرملة السوداء.

راح يصرخ بكل ما أوتي من قوة، ويكيل السباب عليهم قدر ما استطاع، بينما أشعل عدو الفوضى والشغب الأول سيجارته، وهو يستمتع بالمتابعة، مُصدرًا ضحكات خافتة ومتقطعة بين الحين والآخر. أمسك به الرجال، وهو يحاول الهرب، قذفوا به إلى الأرض، وأمسكوا بكاحليه بقوة لم يستطع الإفلات منها، ووضع بعضهم قطعة قماشية رطبه على فمه وأجزاء من أنفه، فاختموا صوته في المكان، إلا من بعض صرخات مكتومة كانت تأتي من وراء القماش الرطب كآخر صرخة لغريق يئس من النجاة.

الجدران متواطئة مع ما يحدث، والعالم يضيق ليصبح بحجم الغرفة الخاوية من الأثاث، والناس كلهم يأخذون شكل ذلك الرجل المهندم الكار للشمع والفوضى. تمنى البلولة أن تحدث معجزة تقتلعه من الغرفة باردة الجدران، أن تختفي الجدران، وقضبان النوافذ العالية، والرجال الماورائيون، وأن يختفي هو نفسه. تذكر القطط التي رآها على السور، وتمنى أن لو كان قطعاً أو أن لم يكن. نرف دماء حارة من حنجرتة أثناء صراخه، خارت قواه وهو يحاول منع المهزلة من أن تحدث؛ فلم يستطع.

خرج البلولة من المعتقل بعد أسابيع من ذلك، فاكتشف أنه لم يكن راغباً في الخروج. كان يتساءل: "نرى هل يعرف الناس بأمر هذا المبنى وما يجري داخله؟ هل مرّ الجميع بمثل ما مررت به؟" قال ذلك وهو يرى حشدًا من الراكضين وراء المركبات العامة. شعر بالغري والفضيحة، أحس بأن الجميع قد شهدوا ما حدث له، وأنهم، بلا استثناء، يرثون لحاله ويشعرون تجاهه بالشفقة. ألمه ذلك الشعور كثيرًا، ومشى مطأطأ الرأس شارد الذهن. يصيبه القليل من الضجيج بالمستيريا، وأصابته فوبيا من التجمهرات والحشود. عاد إلى قريته في العيكورة، وقد فقد صوته وشرفه!

## الفصل الرابع

# لقاء نهارى في حُقول القصب

استيقظ شرف الدين قلقاً على صراخ امرأة بدا قريباً منه، رفع رأسه متكاسلاً، ونظر من خلال النافذة ليجد امرأة، يتذكر ملامحها، ولا يتذكر اسمها، تلقح بجذائها لطفل، ربما كان ابنها، وهي تتوعده بالعقاب عندما يعودا إلى البيت؛ فابتسم قليلاً، ثم فطن إلى أنه حلم بكابوس مزعج، ولاحظ أنه مبتل تماماً بعرقه. خرج من غرفته التي كقبر كافر، وعلى الفور أحس بحركة غريبة في المنزل. لم يقف على وجه الغرابة بالتحديد، ولكنه أيقن أن البيت يعج بكائنات كثيرة، عرف ذلك من أصوات اصطكاك الأطباق في المطبخ، وظل أيد تتلاعب بمشلعيب متأرجح، وصوت ضحكات نسائية خجولة، وأصوات رجالية متداخلة، ووقع أقدام راكضة أو مسرعة، وهمهمات أخرى متفرقة. ازداد شعوره بالقلق والحيرة، وكأنه يحاول تذكر شيء ما، وما إن تجاوز أحد الحوائط ببضع خطوات ودخل بهو المنزل حتى فاجأته الأصوات المتعالية: "الفاخرة!"

تذكر شرف الدين من فوره أمر مجيئه بالأمس إلى العيكورة، وبطريقة متصلة تذكر عزاء والدته، ومنظر جسدها المترهل المسجى على عنقريب الجرتق، وصراعاها مع الموت، والذي لم يستطع حسم نهايته، ومشواره إلى المقابر، واستيائه البالغ من حرارة الجو، والوقت الذي ينفذ من منخار جرد، وحرمانه من التدخين لنصف يوم. كما تذكر قراره بالعودة إلى الخرطوم اليوم، ووعدته مديره في العمل بذلك؛ فشعر بالاستياء لأنه مازال في العيكورة، وفي هذا الجو الجنائزي الممل. نهض حامد ودالنعيم مندفعاً، وأشار إليه بيده ليجلس إلى جواره، فتذكر شرف الدين ملاصقته له منذ البارحة، وكيف أنه كان مستاءً من ذلك أيضاً، ولكنه توجه نحوه، واستسلم لملازمته على نحو قدرى، وما إن استوى في جلسته حتى أمال ودالنعيم رأسه باتجاهه، وهمس في أذنه: "حسناً، صهري، أنك أعدت النظر في قرار رحيلك؛ فقد جاء معزون جدد من الكاملين، وطابت الشيخ عبد الحمود، والهلالية، وقريباً سيأتي آخرون من رفاة وسوبا كذلك." أحس شرف الدين في حديث ودالنعيم بنبرة شماتة، أو كهذا خمن، واكتفى بهز رأسه. كان الجو حاراً جداً، والهواء ثقيل ذلك الصباح، وقد بدأ يشعر بالملل من تكرار شرح أسباب وفاة أمه للمعزين الجدد، ولم يفهم مدى أهمية ذلك بالنسبة إليهم، فأوكل هذه المهمة إلى ودالنعيم؛ لاسيما وأنه يملك وثائق وتقارير طبية تدعم ما يقول، فقط في حال احتاجوا إليها.

من مشهد أحد الفتيان، وهو يحمل كومة كبيرة من الرغيف داخل غريرة من الخيش الملون، على دراجته الهوائية متوجهاً بها إلى القسم النسائي، عرف أن الوقت لم يتجاوز العاشرة صباحاً. فقط ليقطع دابر شكّه باليقين، همس في أذن ودالنعيم مُظهرًا العتاب: "ألم يتناول المعزون فطورهم بعد؟" فأجابه بطريقة تشبه الاعتذار: "كان علينا أن ننتظر حتى يأتي فوج القادمين من طابت الشيخ عبد الحمود." فتأكد له تماماً أنه وقت فطور وليس غداء كما يوحي الطقس. حرص هذه المرة ألا يجلس إلى جوار ودالنعيم على المائدة، ووجد في إنجاز ذلك متعة خاصة.

بعد الإفطار؛ تقدم أحدهم، وبدأ يعظ الموجودين، لم يكن شرف الدين يعرفه، ولكنه خمن من هيئته، ولحيته الكثثة أنه إمام جامع القرية الجديد. تكلم بصوت متحشرج، أحسن فيه التكلف والصنعة، عرف أنه يحاول التأثير في

الحاضرين. قال في سره: "إذا لم يكن الكلام نفسه مؤثراً، فلا حاجة للمؤثرات الصوتية!" تكلم الابتلاءات الإلهية التي تواجه المؤمن في دنياءه، وعن ضرورة هذه الابتلاءات، وما ينتظر المؤمن من ثواب إذا هو صبر عليها، وتقبلها قبولاً حسناً، فلم يضجر، ولم يقنط، ثم دعم كلامه بسرد قصة النبي أيوب، الذي يبدو أنه كان أول من سنّ الصبر، وكانت القصة مغايرة، نوعاً ما، للتي يعرفها ويحفظها عن ظهر قلب.

تكلم عن صبر الأنبياء على الابتلاءات، ونصح بالاعتبار من سيرتهم، والافتداء بهم، وتكلم عن الموت وما بعده، وعن عذاب النار، وعمّا يبقى للميت من أعمال، وخلف صالح يدعو له، فأحس أنه يعنيه بذلك. طالت الموعظة، وشعر شرف الدين بالضيق والملل؛ لاسيما وأن الجو قد بدأ يزداد حرارة، كما أن حديث الشيخ عن النار فاقم من إحساسه بالسخونة. تمنى أن يتخلص من ثيابه التي التصقت بجسده بفعل الرطوبة؛ فخطر له أن يسبح عارياً في مياه النيل، وعزم على ذلك. بدأت شهوة التدخين تحكم وثاقها على صدره من جديد، ما ضاعف إصراره على الخروج في أسرع وقت.

ظل ينتظر اللحظة المناسبة التي يعلن فيها عن قراره؛ ولم تأت، فلم يكن الشيخ يلتقط أنفاسه، ويتكلم دون انقطاع، فحسم أمره وضغط بكفيه على ركبتيه، وهو يحاول النهوض، وللمرة الثانية وجد نفسه مضطراً للاستئذان من ودائعهم، فهمس إليه بشيء من الجدية: "أكاد أحتق من هذا الجو، أحتاج إلى قليل من الهواء. سأكون بالخارج لبعض الوقت." ولم ينتظر حتى يسمع رأيهم، وغادر على الفور.

خارج الصالة المخصصة للرجال، بعث منظر الأحذية والمراكيب المتناثرة في نفسه شعوراً بالضيق لم يفهم مصدره على وجه الدقة، وتدافع بعض الأطفال أمامه، وهم يركضون غير آبهين بخرقة العزاء، ولم يزرهم أحد. اصطدمت يد أحدهم بما بين فخذه، تألم كثيراً غير أنه لم يستطع أن يبدي ألمه أمام الجميع. رأى أن بروز الخصيتين خارج الجسد فكرة غير صائبة؛ إذ بإمكان طفل شقي أن يشكل تهديداً دائماً لمستقبله التناسلي، وعندما تذكر أنه لا يرغب في الإنجاب، شعر بشيء من التحسن.

سمع صوت بسبسة تأتي من جهة ما، التفت نحوه ليجد أخته عواطف واقفة عند مدخل الصالة النسائية، وقد غطت نصف وجهها السفلي بطرف ثوبها القاتم؛ فتوجه نحوها بخطوات قصيرة ومتألدة: "حبيبي أنت يا شرف، أشكر لأنك لم ترحل، وتضعنا في حرج مع الناس. هنالك نسوة يردن تعزيتك." ومرة أخرى تعالت الأصوات: "الفاتحة!"

\* \* \*

الأرض، التي تميل إلى الحمرة، أسفرت عن بعض النباتات الشوكية المتفرقة كثاليل فيروسية مقرزة. بدت أرض العيكورة كظهر زاحف أسطوري مليء بالحراشف المدببة، ينام في هدوء على ضفاف بحيرة بركانية. تتقاتل صغار العقارب

للظفر بظل بائس تحت أوراق النيم المتبيسة، فيما يعبر نمل كلب الحر في قوافل طويلة بمحاذاة جدران البيوت، والرياح تتواطأ مع المناخ ضد الإنسان؛ فتنتفث سمومها الغباري على وجه القرية، وتعبّر فتحات النوافذ والأبواب لتنتحر، أخيراً، على جلود النساء والرجال والأطفال ذوي البشرة الدهنية.

للولهة الأولى تبدو العيكورة كقرية حلت عليها اللعنة؛ فلا تسمع غير صفير الريح، وطقطقة النوافذ الخشبية، وحفيف أشجار المجلج والمورينجا، ونباح الكلاب، وزعيق طيور البوقير المزعجة. تنهض أعاصير ترابية من مخابثها، ثم تختفي، ثم تظهر مرة أخرى، كعفاريت تروّح عن نفسها، في هذه القائطة، باللهو والألاعيب السحرية. وحده ثغاء الماعز، خلف أقبية البيوت، من يهب المكان حيويته وطابعه الإنساني.

ألقت الشمس أشعتها على مياه النيل بشكل رأسي؛ فبدا سطحه وكأنه مغطى بورق القصدير. وقف شرف الدين قبالة النيل، وعبأ صدره بقليل من الهواء الساخن، ثم شرع في نزع ثيابه قطعة قطعة، بعد أن أمسك بعقب السجائر بين إبهامه وسبابته وقذف به بعيداً. خاض بقدميه في النهر حتى وصلت المياه إلى حجابيه الحاجز، عندها رمى بنفسه في أحشاء النيل. تسلل إليه شعور جيد ومنعش، وأخذ يغطس في الماء ويخرج منه، وكرر ذلك حتى تعب، عندها رفع قدميه إلى مستوى رأسه، وطفأ على ظهره.

كانت الأمواج تعتلي كرشه الصغيرة، فتعجبه الدغدغة التي تصدرها، وراح ينفث الماء من فمه، كالحيثان، فتنتطلق عاليًا محدثة نافورة فموية لتهطل على وجهه من جديد. نظر إلى القرية وهي غارقة في سراب كوني سببته أشعة الشمس، وكأنها ستختفي بعد قليل. لاحظ وجود شبح أسود في منتصف الصورة السراية من الناحية القريبة منه، ولم يتأكد من كنهه، ولم يتوقف عن السباحة حتى هبّت ريح فجائية حركت الموج بقوة، وكأن شيئاً ما، لا يعرفه، قد أغضب الإله. وجد صعوبة بالغة في السباحة مع هذه الأمواج المتلاطمة فقرر الخروج.

على ضفة النهر وقفت وقية عبد الباسط ترمق جسده العاري المبتل بنظراتها المثيرة: "رأيتك تخرج من البيت متوجّهاً إلى هنا؛ فأتيت." لم يكن شرف الدين قد سألها عن سر معرفتها بوجوده هنا، ولكنه وجد تبريرها مقنعاً؛ لاسيما وأنه تذكر أنها استمتعت معه كثيراً ليلة البارحة. "الجميع توجهوا منذ الصباح لبيت العزاء، ولن يعودوا قبل غروب الشمس؛ سأنتظرك في البيت، وأترك لك الباب مفتوحاً." هز رأسه موافقاً، وغادرت هي على الفور، قبل أن يقوم بفعل طائش ومجنون، كما هي عادته.

\* \* \*

لم يحتج شرف الدين أن ينتظر طويلاً حتى يجف جسده، فقد كانت الشمس حارقة لدرجة أنه جف بمجرد خروجه من الماء، ولكنه كان ما يزال يحس بالانتعاش. اعترته رغبة جامحة في معاورة خمر أكيج من جديد، فسار بمحاذاة النيل حتى وصل إلى منزلها.

طرق الباب، وكان بإمكانه أن يدخل الحانة، كعادته، من الجدار الجنوبي المنهار جزئياً، غير أنه تذكر أنها متزوجة الآن، ولم يجد لباقة في تصرفه ذلك. خرج إليه زنخي عملاق سد فتحة الباب، وسأله بنبرة جافة، ولكنه عربية ركيكة: "ماذا تريد؟" كان شرف الدين قد أعد نفسه للتعريف بنفسه أولاً، غير أن السؤال المفاجئ أربكه قليلاً، قبل أن يجيب: "أريد بعضاً من الخمر." نظر إليه الزنخي، وقد قطب حاجبه: "في هذا الوقت؟" لم يفهم شرف الدين مغزى سؤاله، إلا أنه هز رأسه واصطنع الظرف: "لا يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم!" لم يفهم جيمس معنى ذلك، ولم يجد في كلامه ما يدعو للضحك، غير أنه سمح له بالدخول على مضض.

توجه شرف الدين إلى المكان المخصص للسكاري تحت الراكوبة المصنوعة من أعواد الخيزران، وكانت ما تزال مغطاة بقطعة من الخيش مثبتة بحجارة عملاقة، وأسفل منها رأى النيل رزقة نائماً على حصيرة من ألياف النخيل. أخرج سيجارة وأشعلها، وظل ينتظر إلى أن جاء الزنخي العملاق حاملاً زجاجة الخمر، وكأساً وضعهما أمامه مباشرة، وانصرف.

الحقيقة أن شرف الدين لم ينتبه إلى ملامحه هذه المرة، ولكنه راح يصب الخمر لنفسه، وعرف منذ الرشقة الأولى أنها ليست من النخب الأول الذي تسقيه منه أكيج، فاستاء لذلك كثيراً، بيد أنه لم يتوقف عن الشرب.

كان الكلب الكسول ممداً على شريط ضيق من الظل، وذيله ما يزال يهتز بطريقة متوترة، والذباب يتجمع على أنفه الرطب كما تتجمع الفراشات حول الضوء. أزعج الستار عن مدخل إحدى الغرفتين، وخرج جيمس العملاق مرة أخرى. توجه ناحية الكلب ووضع أمامه طبقاً متسخاً به بقايا طعام بشري، ولم يكتثر الكلب لذلك، فقط رفع رأسه في لامبالاة واضحة، ونظر إليه قليلاً، ثم أعاد دس رأسه بين قائمتيه الأماميتين مرة أخرى.

في طريق عودة الزنخي استوقفه شرف الدين، وسأله عن أكيج، فنظر إليه جيمس بشيء يشبه الغيرة، وأخبره أنها تأخذ قيلولتها في الداخل، وأحس شرف الدين أنه أراد إخباره بأن الوقت ليس مناسباً للزيارة، وهو أيضاً رأى ذلك. كان مذاق الخمر سيئاً، ولكنه تناولها دفعة واحدة، وانصرف.

\* \* \*

أضافت إليه الخمر إحساسًا بالضييق، رغم تحرك بعض الكرات المجنونة الصغيرة في رأسه، فلم يعرف أن يحدد ما إذا كان ترنحه في المسير بفعل الخمر، أم بفعل أشعة الشمس. لاحظ وجود خط طويل على الأرض الرملية الحمراء، يبدأ من مكان ما داخل القرية، ويختفي داخل حقل القصب، فعرف أنه حسن البلولة.

داخل حقل القصب اكتشف شرف الدين أن الحرارة أخف وطأة، وتعجب كيف لم يفكر في اللجوء إلى هنا من قبل. لم يدم بحثه عن البلولة كثيرًا، ولم يكن يصعب عليه تخمين أين يجده بين سيقان القصب المتشابكة؛ إذ تعودا الجلوس عند ملتقى تقاطع الجداول المائية، وما إن رآه حتى ازدادت عيناه اتساعًا، وصرخ بفرح، مُصدرًا أصواتًا ذكّرت نواح عمته عديلة بابو المتكلف.

تبادلًا بعض النظرات التي تعبّر عن الاشتياق، ثم جلسا أرضًا، وراح يخبره عن عمله الجديد في العاصمة، وعن زملائه في العمل. أخبره عن الجانب المشرق من الخرطوم، وعن شوارعها السرية، وروعة الليل في شارع النيل، وعن الفتيات في حديقة المقرن، وقاعة الصداقة، وحفلات أبو عركي البخيت في الفندق الكبير، وعن جزيرة توتي القابعة في قلب النيل كعروس بحر أسطورية، وعن جنائنها التي ترك فيها ذكريات جميلة.

أخبره عن علاقاته العاطفية الفاشلة، وعن قراره الأخير بأن يدلّل نفسه، وأن يعوضها عن اللحظات التي أنفقتها في مطاردة الوهم. أخبره عن علاقته بوقية عبد الباسط، وكيف أنه يُجلّ فيها قدرتها الاستثنائية على الإغراء: "أن تقرر أنثى وهب جسدها لأحدهم دون مقابل؛ هذا ليس بالأمر السهل على الإطلاق!" قالها بنبرة امتنان، وعيناه تلمعان في مكر. أخبره، أيضًا، عن بغضه للأطفال وإزعاجهم الذي لا ينقطع، ثم تذكر فجأة، واستطرد: "كما أن أمي توفيت كذلك!" تغيرت ملامح البلولة، وأوشك أن يرفع يديه لقراءة الفاتحة معه، إلا أن شرف الدين خفضهما له، وهو يقول: "كان ذلك بالأمس."

بعد أحاديث كثيرة ومتفرقة، ساد صمت طويل بينهما، وكأنهما قررا منح نفسيهما مهلة للاستمتاع بالهواء البارد الذي مر فجأة؛ فلحظات كهذه قد لا تتكرر كثيرًا في هذا الجو الحار. أرخى شرف الدين ظهره إلى الخلف، ووضع رأسه على كفيّيه المتشابكتين:

- هل تعلم، يا البلولة، ما هي أصعب مهمة قد ينجزها الإنسان؟

- !!

- الصدق! الصدق يتطلب توفر صفات كثيرة، فهو يتطلب قدرًا كبيرًا من الشجاعة والصبر والحكمة؛ وهي مهمة لا يستطيع إنجازها إلا الأنبياء.

سكت قليلًا قبل أن يستدرك: "حتى بعض الأنبياء لم يفعلوا في ذلك!" كانت عينا البلولة جاحظتين، فلم يستطع شرف الدين أن يفهم ما إذا كان ذلك وضعهما الطبيعي أم بسبب ما قاله للتو، وبطريقة توحى باتصال



الحديث، التفت إليه وهو يتساءل: "لماذا لا تأتي معي إلى الخرطوم؟ بإمكاننا شراء لوحات لفان جوخ وجونان أو حتى لادجار ديجاز." ولكنه تذكر أن لوحات هؤلاء لا يمكن أن توجد في الخرطوم، فضحك ثم سكت قليلاً وضحك مرة أخرى وهو يقول: "لا علاقة للأمر بما كنا نتكلم عنه؛ أليس كذلك؟ ذكرني هذا بالرجل التحفة (علي مناسبات). ترى أين هو الآن؟"

\* \* \*

كان شرف الدين قد أمضى وقتاً طويلاً مع البلولة في حقل القصب واتفقا، تقريباً وبشكل مبدئي، على الذهاب إلى الخرطوم سوياً، وأقفل شرف الدين عائداً إلى المنزل، وهو يتساءل ما إذا كان الشيخ قد أنهى موعظته أم لا، وأضمر الحقد تجاهه. كانت تزعجه كثيراً خطب الوعظ، وكل ما يتعلق برجال الدين. لم يكن قادراً على فهم الدين من حيث أنه علم كهنوتي، له رجاله العارفين بخباياه، وكان دائماً يقول: "لا خبايا في الدين. يجدر بالدين أن يكشف الخبايا لا أن يتحلى بها" ولذا فإنه لم يكن يحب رجال الدين، ولم يحب مظهرهم أو حتى الطريقة التي يتكلمون بها مع الآخرين، وكأنهم أقل منهم.

أذهل البلولة ذات يوم، عندما قال له: "لا شيء اسمه (دين). للدين فلسفة وحيدة، وهي أن يمنحنا الطمأنينة، ولكل شخص دينه الخاص. لا يتطلب الأمر أوامر ونواهي؛ تلك وظيفة الأخلاق لا الدين، وواهم من ظن أنهما شيء واحد." وفي أثناء ذلك تذكر أن وقية تنتظره في منزلها؛ فتهللت أساريره بالفرح، وساعده ذلك على التصالح مع الواعظ وموعظته.

لم يجد باب منزلها مفتوحاً كما أخبرته، فتردد في طرق الباب قبل أن ينتبه إلى وجود سلك بارز في الباب، شده برفق فانفتح الباب، ليجدها أمامه، وما أن أغلق الباب ورائه حتى أسندت ظهرها عليه، وراحت تنظر إليه بغضب "هل تعلم كم من الوقت أمضيت وأنا أنتظرك؟ أين كنت؟" حكاً لها عن ذهابه إلى منزل أكيج، وعن الوقت الذي قضاه مع البلولة، ولم يبد عليه أنه كان يُرر؛ بل أخذ يقص عليها الأمر، وكأنه لم يفهم مغزى سؤالها على الوجه المطلوب، ولكنها لم تقاطعه، وراحت تنصت لما يقوله باهتمام، ثم إنها أعادت رسم ملامح الغضب عندما بدأ يتغزل بها "دعك من كل هذا، تبدين رائعة في هذه الثياب."

عاتبته بغنج تقننه، وأخبرته أنها منذ تركته عند ضفة النهر، وهي منشغلة في تهيئة نفسها لاستقباله، وقضاء وقت ممتع معه، حتى أنها لم تشأ أن ترتدي ملابسها الداخلية، ولا مته لأنه لم يبد ملاحظته بشأن العطر الذي تطيبت به؛ فانتبه، وقتها، إلى أن رائحتها كانت جميلة فعلاً. أراد أن يقص عليها طرفة ابن أخته الذي تبول على الجدار، فاكتشف أنه لا يعرف اسمه، فتجاهل الأمر.

حاول أن يستدرجها لتمدّد، فلم تفعل، وسمحت له فقط بملامسات جسدية وقبلات سريعة، لأنها توقعت أن تعود أمها وأخواتها الأربع في أية لحظة، واقتربت عليه أن يمضيا المتبقي من الوقت في الحديث عن مستقبل علاقتهما الغريبة هذه.

كانت هي المرة الأولى التي يكتشف فيها شرف الدين أن علاقته بوقية عبد الباسط قد تكون غريبة، وأدهشه ذلك، ولم يكن يعرف ما يمكن قوله بهذا الشأن، ولكنه قدّر أنه من المهم أن يسمع ما تريد قوله. ترددت وقية قبل أن تسأله بمكر: "لماذا لم تفكر بالزواج حتى الآن؟" أراد أن يقول بأنه شخص مزاجي، ويجب أن ينزل من سريره من أية جهة يُريد، ولكنه عدل عن ذلك؛ إذ لم يجدها حجة جيّدة.

- أعتقد أن الأطفال هم السبب، فأنا لا أحب الأطفال.
- هل هنالك شخص لا يُحب الأطفال؟
- أنا
- الأطفال هم ملح الحياة، والسر الذي يدفع الناس للزواج.
- الأطفال مزعجون.
- سوف تعتاد إزعاجهم، حتى تعود لا تراهم كذلك.
- كما أنهم فوضويون
- أنت فقط مفرط الحساسية. فقط تخيّل أن قطعة منك تسير وتكبر أمام عينيك؟
- لقد تخيّل هذا من قبل، وأراها فكرة مخيفة!

اكتشفت وقية أن الوسيلة التي اتبعتها معه منذ البداية كانت خاطئة، فغيّرت مسار الحديث مباشرة:

- ماذا تسمي علاقتنا هذه، وما هو مصيرها برأيك؟
- أنا أراك امرأة فاتنة ومثيرة، كما أنك لستِ مزعجة أو ثرثرة كبقية النساء.
- ألا تفكر في الزواج بي؟

بدا عليه الاندهاش والمفاجأة، ثم راح يفكر بعمق:

- لا أجدها فكرة سيئة على الإطلاق
- إذن؟
- لا بد، أولاً، أن أتخلص من رواسب تجاربي الفاشلة. أحتاج إلى بعض الوقت يا وقية.
- عمري الآن تسعة وعشرين يا شرف!

- كان عمري تسعة وعشرين من قبل، وماذا في ذلك؟
- قد انتظرتُ لسنوات طويلة، ولا أرى أنني قد أحتمل أكثر. لقد بدأ الناس يتحدثون عني في مجالسهم الخاصة، وهم يعتقدون أن وراء عدم زواجي، حتى الآن، سرًا.
- ماذا إذن؟ هل نذهب إلى مأذون الأنكحة الآن؟
- لا، ليس الآن طبعًا، بعد بضع الوقت.
- وهذا ما طلبته بالضبط!

نظرت إليه في حنق، وانحالت عليه ضربًا، ثم انفجرت بالضحك، ورغم أنه لم يفهم سر ما حدث، إلا أنه أعجبته الطريقة الحكيمة التي انتهى بها الحوار. في أثناء ذلك سمعنا أحدهم يحاول فتح الباب من الخارج، فنهضنا فزعين على الفور، وطلبت منه تسلق السور الخلفي للمنزل والهرب، ففعل.

## الفصل الخامس

# شؤون عائلية

ما إن دخل من إحدى الأبواب الخلفية للمنزل ورأته، حتى نادى عليه نعمات، وهي تعض ظهر سبابتها: "ما هذا؟ ما الذي فعل بك ذلك؟ وأين كنت كل هذا الوقت؟" تتبع شرف الدين سهام نظراتها الغاضبة، وألقى نظرة سريعة إلى حيث تنتهي؛ فوجد جلبابه متسخًا بغياب الطوب الأحمر، وتبر الرمل النهري. ألح عليه صدقه أن يقول حقيقة الأمر، ولكنه تذكر حديثه للبلولة عن ضرورة ملازمة الحكمة للصدق، وتخيّل ما قد ينال وقية من أذى جراء صدقه، فابتلع أحرف كلماته الأولى، وعاد يخبرها أنه كان يقضي وقته مع حسن البلولة في حقل القصب.

نظرت إليه في دهشة غاضبة، وهاجمته بعتاب قاس: "البلولة مرة أخرى؟ ألم تكف عن ذلك بعد؟" عندها قاطعها على الفور بأنه سوف يبدل ثيابه، ويصلح الأمر، فهدأت قليلاً، وشعرت ببعض الارتياح لذلك، ومضت إلى المطبخ، وأسعده أنها لم تلح في صراخها.

في نهاية اليوم الجنائزي الثاني كان عدد الذين قرروا المبيت قد بدأ بالتناقص، ولكن عائلة بابو أصرت على الاجتماع، كما هي عادتهم في المناسبات التي تجمع أفراد الأسرة الممتدة، وهذه المرة كانت العمّة عديلة حاضرة، ما أكسب الاجتماع طابعاً عذائياً.

تحدثوا في شؤون عائلية كثيرة، وبالتأكيد لم ينسوا أن يعاتبوه على غيابه المتكرر عن ديوان العزاء، ونعته نعمات بعدم المسؤولية؛ بينما دافعت عنه عواطف، ورأت أنه أكثرهم تأثراً برحيل أمهم، لأنه لم يشهد وفاتها مثلهم. وفي بادرة غريبة، وخارجة عن الإطار طرحت فتحة رغبتها في ارتداء الحجاب، فكان رد زوجها حامد ودالنعيم أن ذلك شأن يخصها، وهي الوحيدة من تملك البت فيه، ووافقه شرف الدين على ذلك، وأضاف إنها ليست بحاجة للحجاب؛ حيث لا تكاد تخرج من البيت إلا لماماً، ولكنها ردت عليه في حسم بأنها إنما تريد فعل ذلك لأنه أمر رباني؛ فسكت. كن قد بدأت، كعادتهم، في تداول الأحاديث السخيفة والنميمة، وتعجب من قدرة عمته عديلة على إحصاء عدد النساء المخضبات، وأشكال ورسوم خضابهن، وما كانت ترتديه كل واحدة من المعزيات من حُلّي ومجوهرات. لكنه تفاجأ، عندما اكتشف أن الأخريات يتحلين بذات الميزة.

بدأن يتجادلن حول مصدر هذه الحلي ومنشئها، ففيم خمنت عديلة أنها من الخليج حيث يعمل أزواجهن، أصرت نعمات أنه ذهب خرطوم، وكان دليلها على ذلك أن أتنف الأصفاف التي أرسلها زوجها، الشفيح حاج مرضي، من الخليج يبدو أغلى بكثير مما كن يرتدينه. كما رحن يحصين عدد اللواتي اجتهدن في البكاء، وأظهرن صدقاً أكبر فيه، وأولئك اللواتي بكين دون حرص ودون عاطفة. وتكلمن عن فقدان إحدى النسوة ثمانية عشر رطلاً من وزنها، وزيادة وزن أخريات. وتحدثت عواطف بكثير من الامتنان عن اللواتي ساعدنّها بإخلاص في أعمال المطبخ، وسرّه أنه سمع اسم وقبة بينهن، غير أنها أبدت أسفها الشديد على تحطم بعض أطباق البايكس الصينية الفاخرة، التي لا يستخدمونها إلا في المناسبات الخاصة.

انتقلن بعد ذلك للحديث عن الطقس، وتسببه في تأخر المعزين القادمين من مناطق بعيدة، وأبدى شرف بعض الاهتمام بهذا الجانب، وأضاف إن الجو لم يكن مناسباً لقيام هذه المناسبة، ولكن أخواته رمقنه بنظرات حانقة، ولم يُسهين في هذا الحديث، وفضلن الخوض في أمر الأطفال، والدمار الذي خلفوه. قالت نعمات: "لا أدري كيف تترك الأمهات أطفالهن هكذا دون مراقبة أو اهتمام؟" كانت ملاحظتها تلك محل احترام شرف، الذي ابتسم في سرّه، بعد أن تأكد له أن ثمة آخرين يشاركونه رأيه حول الأطفال، ولو جزئياً.

وعندما بدأن يناقشن ضرورة استبدال الملايات المستخدمة بأخرى جديدة، واختلفن حول أيها يستخدم، شعر بالملل من سماع هذه التفاهات التي لم يجد نفسه منسجماً معها كما أبدى ودالنعيم، فنهض من فوره وكان على وشك الاستئذان، ولكن أحداً منهم لم يكن يلاحظ، فغادر في هدوء. كن، وقتها، يناقشن أمر ألوان الملايات الملائمة لمناسبة العزاء.

أحس بحزن غامر يداهم دون أن يعلم سبباً له. حزن عميق وقديم، وللحظة ما انتابته رغبة ملحة في البكاء. الليل مزعج بحدوثه القاتم، تصبح الآذان مرهفة أو الأصوات أعمق وأكثر وضوحاً؛ لذا فإنه قرر الهروب إلى ناحية بعيدة. كان يقول دائماً: "بكاء الرجال، كعادتهم السرية، يجب أن يكون في الخفاء!" يكاد يتذكر المرات النادرة التي بكى فيها، فلم تكن فيهن واحدة بلا خمر. "لا يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم!" ردها بصوت خافت، كأنه يخشى أن يسمعه أحد.

\* \* \*

في بيت أكيج دينق، كان زوجها العملاق يجلس في مكانه المعتاد. ملامح وجهه جامدة، لا توحى بشيء على الإطلاق، والوشم الإبري الذي على جبينه يلمع على ضوء البدر غير المكتمل، كأساور من معدن قاتم. كان ييصق من فمه لعباً غزيراً وداكناً بين الحين والآخر، والكلب الكسول المتشائم ينام إلى جوار برميل صدئ، دون أن يزعجه الذباب الذي يحوم حول أنفه. النيل رزقة، ذو الصوت المبحوح، يناكف أكيج بحذر هذه المرة، ويهذي بلغة فرنسية متقنة: "Quel rapport y a-t-il entre le vin et les femmes? Pourquoi jamais rien d'autre ne nous vient à l'esprit, "chaque fois que l'on boit." فترد عليه أكيج بحزم إداري قاطع: "يا النيل أليك الله رطانة بتاء خواجات دي أننا ما بنفهم، ما تعمل لينا صُداء ساي" كل شيء كان مُكرراً ورتيباً، حتى أنه كان بإمكانه أن يتكهن بما سيكون قبل أن يكون.

منذ زمن طويل قرر شرف الدين ألا يُجالس أحداً في الشراب، ورأى أن الخمر مادة تغسل الروح، وتهبها الصفاء، وأن روح الجماعة والمشاركة غير متسقة مع هذه العملية، وأسقط الأمر ذاته على شؤون كثيرة قرر فعلها بمفرده

دون مشاركة من أحد. كان يرى أن جلسات الشكر لا يجب أن تكون لأكثر من ثلاثة أشخاص على الأكثر، وإلا لكانت فوضى، وكان يقول: "إن الشكر مناجاة روحية ذات طابع خاص"، ورأى أن المناجاة لا بد أن تكون فردية؛ وإلا فقدت خصوصيتها.

أغلب الذين جالسهم من قبل كانوا لا يخرجون عن أحد ثلاثة نماذج: فهم إما ساخطون على الدنيا، لا يكفون عن ترديد العبارات التي توحى بالرتاء والنقمة، وإما ممجدون لأناهم، فيكثرون الحديث عن بطولاتهم ومغامراتهم المتوهمة، ويذكرون مناقبهم الحسنة، وكأنهم أنبياء، ولكن فقط سكارى حاليًا، وإما ثرثارون لا يقدمون لأنفسهم أو لمجالسهم فائدة تذكر، وهؤلاء يعرفهم جيدًا؛ فمنذ أن تثقل الخمر رؤوسهم، تنزل عليهم شآبيب المحبة؛ فيغدونها على الجميع، حتى أولئك الذين يرونهم لأول مرة؛ فتجد أحدهم قد مال بجسده كله على الآخر، وهو يقسم له بأنه يحبه، وأنه فخور بمعرفته، وأنه شاكر للأقدار التي جمعتهم به.

كان الحزن يتمدد داخله فيضيق جلده عليه. شعر بأنه مدينة مسكونة بأشباح تعيسة لقتلى حرب عنصرية، والحزن آلهة لتلك المدينة المتفحمة لم يشهد أحد تنصيبها؛ إلا أنهم خضعوا لها. لستتها المدروسة تراجيديا طقوسية بالغة الصرامة، والبكاء صلاة إلزامية في مواسم الكهنوت الحزائي التي لا تنقضي إلا بضمور الأرواح أو ذوبانها في الجلود. أراد أن يتخلص من شعوره ذلك، ولكنه لم يستطع. لم يكن يرغب في التحدث مع أحد، وكأن لسانه معقود بحبل رقيق إلى قلبه المنفطر. فقط تناول كأس خمره من أكيج، وأخذ ينظر إلى ما بين قدميه، نافثًا دخانه بكل ضجر، وهو يردد أغنية لمصطفى سيدأحمد:

الدنيا ليل غربة ومطر

وطرب حزين وجّع تقاسيم الوتر

شرب الزمن فرح السنين

والباقي هداه السفر

يا روح غناي

الغربة ملّت من شقاي وغرتي

وبقيت براي

حاضن أساي

الوحشة ملّت من أساي وحدتي

لا غنوة لا موال يبدد حسرتي

غير الدموع يا ملهمة

الغربة مُرة ومؤلمة

وللمرة الأولى لم يستشعر تلك اللذة التي تتزامن مع اللحظات الأولى للسُكر، تلك التي تشبه لحظة الميلاد أو الخروج من شرنقة. لحظة تنطفئ فيها أنوار البصر، لتشتعل أضواء البصيرة، يصبح فيها الكون داخلك، فتشعر بكل شيء، ولا تشعر بشيء. تبدأ الحواس بالتعطل شيئاً فشيئاً، وتولد حواس أخرى مكانها أكثر حدة وحساسية، ولكنه لم يشعر بشيء من ذلك. وجد نفسه وقد ثمل فجأة دون مقدمات، وعندها قرر الخروج من المكان على الفور. سار وكأنه يعلم إلى أين يتجه، ولكنه كان يغرق داخل ذاته في هدوء، هائماً على وجهه في دروب مدينته الحزائية. روحه تطفو على جسده، ويسمع أصواتاً تتزاحم في أذنيه، لم يعرف ما إذا كانت أصواتاً مزعجة أم حميمة، ولكنه انشغل بها كثيراً؛ حتى وجد نفسه على قبر أمه. أخذ يتأمل القبر، وكأنه يصلي في خشوع، صلاته الأخيرة، ثم هوى جاثياً على ركبتيه.

مسّ أطراف القبر بأنامله المرتعشة، وكأنه يتحسس وجه الموت أو وجه أمه. عرف أنه يشاق إليها في هذه اللحظات، وأنه كان بحاجة إلى سماع ثرثرتها عن الأبقار النافقة، وآفات الزراعة، وفضائح القرية، وأسعار البضائع، وأنباء السوق وأهله، وقائمة الفتيات المقترحات للزواج.

لم يتمالك نفسه وهو يتململ فوق قبرها كطفل حديث الولادة؛ فأجهش بالبكاء. راح يعتصر تراب القبر بقبضته، ويهزه بقوة. أخذ يستنشق أبخرة الموت الرابضة على القبر كرماد الأسلاف، باحثاً عن رائحة أمه القريبة من رائحة القونقلير. بكى بكاء التائبين، وكأنه لا يريد أن يتوقف. مرّت عليه، من خزانة ذاكرته، صور متداخلة وكثيرة، بعضها موغل في القدم، وبعضها الآخر أكثر حداثة، كان من بينها: صورة أبيه الغاضبة والمتجهم، كما يتذكرها على الدوام. كانت خلاصة الأمر أنه لا يتذكر لحظة سعادة حقيقية في حياته، وأن ما مضى منها قضاها في سلسلة من النكسات المتعاقبة، وأنه لم يظفر بأصدقاء حقيقيين، وكانت الحقيقة الأخيرة التي أدهشته، وآلمته كثيراً أنه أصبح يتيماً، فازداد بكاءً.

\* \* \*

في الصباح، وجد نفسه ممداً إلى جوار قبر أمه، وذراعه تلف الجزء المتورّم منه. نظر من حوله فإذا المقبرة هادئة، هدوء قرية موبوءة قضى الطاعون على سكانها، والقبور تمد شواهدا ألسنة ساخرة ومتهكمة. نظر إلى شاهد أمه، وكأنه يراه للمرة الأولى (هذا قبر المرحومة ست النفر بت جادالله مرزوق / 23 يونيو 2002) انتابه شعور غريب حيال التاريخ المكتوب، وكأنه تاريخ يخص رخاله من أزمنة غابرة.



خيّل إليه أن الموتى ينظرون إليه بدهشة منقطعة النظير، وكأنهم يتساءلون عن هذا الكائن الحي الغريب الذي قضى ليلته معهم هنا، تاركًا عالمه الصاحب. قدّر أنهم أحسنوا وفادته، وأنه أثقل على هدوئهم بيكائه المزعج ليلة أمس؛ فنهض متثاقلاً، ونفض عنه الغبار، ثم انحنى قليلاً إلى الأمام في امتنان، وغادر المقبرة، وهو يكمل نفض ما تعلق على شعره من غبار.

كانت القرية ما تزال تتشاب بكسل، وأشعة الشمس الدافئة تتسلل بخفة، وكأنها تفكر بالعودة إلى حيث كانت. بدأت العصافير نشاطها الغذائي، وأوراق المخلج والمورينجا تعزف ألحانها الموحية بالكآبة، ونهيق حمار بعيد يشد عن النسق الكوني الموحد، ويخرقه برعونة. هز رأسه، وفكر أنه من الجيد أن الحمير لا تتبادل النهيق كما تفعل الكلاب والديكة.

لم تكن به رغبة للذهاب إلى البيت، تذكر العزاء، ورتابته القاتلة، الطقوس المتكررة، والوجوه الواجمة بلا مبرر، والأطفال المشاغبون، والأحاديث المتكلفة، والعيون التي ترمقه في فضول، واشتهاء التدخين الذي يثقل الصدر، ولعاب ودانعييم الذي نال منه نصيباً وافراً خلال اليومين الماضيين.

سقا القرية هو الكائن البشري الوحيد الذي ينضم إلى سيرك الكائنات، راكباً حماره الهزيل مثله، يجر وراءه عربة برميل المياه، يطرق بعضاً الأراك الغليظة على البرميل، مضيئاً بذلك صوتاً جديداً على النوتة الكونية. سار شرف الدين ببطء شديد، وكأنه لا يريد أن يصل. كانت رائحة القونقلير الأمومية ما تزال تسكن خياشيمه، تدغدغ خيالاته عن الليلة الماضية.

كان قد نسي، وقتها، أمر عودته إلى الخرطوم، وتصورات عن الإرباك الذي قد يسببه غيابه، والوعد الذي قطعه لمديره في العمل بأن يعود في اليوم التالي مباشرة، ولكنه، في الوقت ذاته، كان منهمكاً في اكتشاف سر علاقته الوجدانية بالخرطوم. هو لم يحب الخرطوم يوماً، قبل أن يرحل إليها بقرار إداري قبل تسع سنوات، ورغم ذلك فهو غير قادر على التصالح مع العيكورة وأهلها، ويراهم مثيرين للملل، وباعثين على الكآبة.

كل شيء في هذا المكان يبعث على الحزن بطريقة ما، حتى علاقته بوقية عبد الباسط يكتنفها حزن من نوع خاص. لم يحاول تفكيك كل ذلك، ولكنه راح يبحث عن علاقة مناسبة بين حزنه الذي داهمه بالأمس، فجأة، وبين موت أمه؛ ولم يفلح. هز رأسه، وكأنه أراد أن ينفذ عنها هذه الأفكار المزعجة، وحاول أن ينشغل عن ذلك بتريديد إحدى أغنيات بوب ماري التي يعشقها بجنون:

Cause I remember when we used to sit  
In the government yard in Trench town  
Observing the hypocrites  
As they would mingle with the good people we meet  
Good friends we have had  
Good friends we've lost along the way

In this bright future you can't forget your past  
So dry your tears I say  
No woman, no cry  
Little darling don't shed no tears  
Said, I remember when we used to sit  
In the government yard in Trench town  
And then Georgia would make the fire light  
Log wood burning through the night  
Then we would cook corn meal porridge  
Of which I'll share with you  
My feet is my only carriage  
So I've got to push on through  
But while I'm gone  
Everything's gonna be alright  
So, no woman, no cry  
Oh, little darling, don't shed no tears  
No woman, no cry

\* \* \*

اليوم كل شيء هادئ؛ حتى الحزن في وجوه المعزين بدأ يأخذ شكله الحيادي، ليتساوى مع الوجوه التي يألفها، ويجب التعامل معها، فقط النهنات التي كانت تطلقها بعض النسوة في الجانب الآخر كان ينغص عليه من حين لآخر. وكعادته دائماً فقد بدأ ودالنيم بالتسلسل حتى جلس إلى جواره، وببرة لم تخل من مكر همس في أذنه: "هذا هو اليوم الأخير، وغداً نريد أن نجلس سوياً حتى ننهي أمر التركة، لينصرف كل منا إلى عمله وشؤونه."

تساءل شرف الدين، في سره، عما إذا كانت أمه قد خلّفت وراءها تركة فعلاً، فهي لم تكن تملك شيئاً ذا قيمة، وراح يفكر في شأن التركة، وما ستكون، وما إذا كان الحديث عنها الآن أخلاقياً أم لا. فكر إنه ليس من الإنسانية أن يرث إنسان إنساناً آخرًا، وقرر أن ذلك أمر لا ينم عن وفاء، وأسرّ في نفسه: "يجب دفن ما يتركه الموتى معهم، كما كان يفعل الفراعنة من قبل."

بدا العزاء أشبه باجتماع قروي اعتيادي. توزع الناس في مجموعات، وراحت كل مجموعة تتبادل الأحاديث الضاحكة، والموضوعات الدنيوية الأكثر جدية وأهمية من الموت، وبدأ أن الناس قد نسوا أمر وفاة الحاجة ست النفر، وواجب البكاء والحزن عليها، واستغلوا هذه المناسبة التي جمعتهم من أماكن متفرقة في تبادل الأخبار العامة والخاصة. كل شيء كان يوحى بالاعتيادية؛ باستثناء قراءة الفاتحة بين الحين والآخر، عندما يدخل أحد المعزين الجدد، عندها يتلبس الجوّ الجنائزي المكان لبعض الوقت، ثم يعود الأمر كما كان.

بطريقته الوثائقية الخاصة، التفت ودالنيم إلى شرف، وأخرج من جيب جلابه ورقة صفراء صغيرة، وهو يقول: "نسيت أن أخبرك أن موعد زيارة عواطف للطبيب ستكون بعد غد، سوف أذهب معكما، وستكون فرصة جيدة لإنهاء

الإجراءات القانونية بشأنك هناك." نظر إليه شرف بدهشة، وهو يتساءل عن سر إصراره على إبقائه على اطلاع، فابتسم ودالنعيم مستدرًا: "أعني فيما يخص التركة!" لم يفهم شرف الدين مغزى كلامه، كما أنه لم يشعر حيال ابتسامته تلك بالراحة، إلا أنه اكتفى بهز رأسه موافقًا، وأنهى الأمر.

## الفصل السادس

# التَّرْكَة .. السِّرُّ الأول

حل المساء أخيراً، معلناً انتهاء يوم الحداد الثالث، وبدأ المعزون بمغادرة المنزل، ولكن عديلة بابو مازالت تصر على البقاء، ولم تعد مع من عادوا إلى سوبا بحافلة من الطراز القديم، والتي أقلت ما يزيد عن سبعة وثلاثين راكباً، ما بين رجال ونساء بأطفالهم. عاد بيت العائلة إلى هدوئه القديم، وأحس شرف الدين ببعض الراحة لذلك. بدت الوجوه أكثر وضوحاً من ذي قبل، وملامح الحزن تلاشت، إلا من حُمره اكتنفت الأعين، كتذكّار قديم قد يتركه الأرق. ولأول مرة يتاح له سماع صوت طقطقة أغصان المسكيت، وحفيف أوراق السيسبان المزروعان في فناء المنزل. كان بإمكانه أن يستشعر رحابة المنزل من جديد، وأن يسمع صرير الجنادب، ونقيق الضفادع، وصوت صافرة المعدية في آخر رحلاتها المسائية. أذهلته رؤية أحد الأطفال لم يغادر، وخمن أنه ضاع من أسرته في زحمة وداع المغادرين، وضحك الجميع وهم يخبرونه أنه ابن فتحة الأصغر الذي لم يشهد مولده على الأرجح، ولكن ذلك لم يخفف من شعوره بالذهول والاستياء. تحدث ودالنعيم عن رحلة الخرطوم المفترضة، وراح يخطط لها علناً. أحضر حقيبة جلدية وضعها أرضاً، وفرش رجله إلى جوارها، وهو يبحث بين رزمة كبيرة من الأوراق والملفات عن شيء ما. عرف الجميع، فيما بعد، أنه يبحث عن آخر وصفة علاجية تلقتها عواطف من طبييها المعالج، وأسفل الوصفة عثر، أخيراً، على عنوان العيادة، وأرقام هواتفها، وأضاف الوصفة إلى مجموعة أخرى من الأوراق والأدوية التي ينوي أخذها معه غداً.

في كل ما يجري كان شرف الدين منهمكاً في النظر إلى باطن قدم ودالنعيم المليئة بالتشققات، وكعب قدميه المائلين إلى السواد. كانت الشقوق التي في قدميه مشابهة للحداول الصغيرة التي في كبائن الطوب الأحمر؛ تلك التي يستخدمونها لتمرير الماء إلى حفر الكبائن. وبكثير من التركيز، بدت له تلك الشقوق أكثر اتساعاً، وكأنها شقوق أحدثتها دودة خرافية عملاقة في الأرض. فكّر في المأساة التي قد تصيب ذبابة عاترة الحظ إذا ما وقعت في إحدى تلك الشقوق.

في تلك الأثناء كانت عواطف تحاول تحضير حقيبتها الصغيرة، بينما انشغلت نعمات بترتيب المنزل، وبدا الأمر وكأن الحداد انتهى منذ سنوات. بحث عن فتحة، ولكنها والعمة عديلة لم تكونا موجودتين في المكان، والأطفال يلعبون بدمي محلية لسيارات الإسعاف والشرطة، يحركونها بأيديهم، ويتنقلون بها حبواً عبر الصالة، وكأنهم يصوّرون مشهداً سينمائياً لأحد الأفلام البوليسية الشائعة، تابع معهم قليلاً، ثم شعر بالملل.

بطريقة لم يُرد لها شرف الدين أن تكون مثيرة، سأل فجأة: "وماذا عن التركة؟" عندها توقف ودالنعيم عن البحث بين أوراقه، وتركت عواطف يديها داخل حقيبتها الصغيرة، وتوقفت نعمات عما كانت تقوم به، والتفتوا إليه في دهشة أخافته كثيراً. حاول استدراك الموقف الذي يجهل أسبابه تماماً وأضاف: "أعني؛ ماذا تركت أمي يستحق أن يورث؟" نظر الجميع إلى ودالنعيم، وكأنهم يوكّلونه بالكلام نيابة عنهم؛ فتلعثم قليلاً قبل أن يجيب:

"في الحقيقة إنه ليس ميراث أمك فقط، بل وميراث أبيك أيضاً. أعني؛ حقول القصب، وغطيان البرسيم، وقارب الصيد القديم، وهذا البيت؛ إذ ترغب أخواتك في بيع البيت لتصرف كل واحدة منهن في نصيبها كيفما تشاء.

أنت تعلم أن البيت أصبح قديماً للغاية، كما أن الجميع في القرية بدءوا بالانتقال إلى الخرطوم. يجب أن نضع مستقبل الأطفال في الاعتبار، أم لديك رأي آخر، صهري العزيز؟"

أحس شرف الدين أن الأمر تم الترتيب له مسبقاً، ولكنه لم يعرف بم يجب، فظل صامتاً لبعض الوقت، ولسبب لا يعلمه أحس بخوف شديد. شعر بأنه يقف وحيداً في مكان لا نهاية له، وطيف ما، هزبل وباهت، يقف عند أطراف المدى البصري. قاطعت نعمات صمته المتوجس: "كلنا نرغب بالذهاب إلى الخرطوم، لقد أخبرت زوجي الشفيق بالأمر، وأبدى موافقته، ولن ييخل علينا بالمال طبعاً، وعواطف وعبد المنعم متفاهمان حول ذلك أيضاً، وهكذا سيكون بإمكاننا جميعاً أن نزل إلى جوارك!"

شعر شرف الدين بمبادئ صدام يداهم مقدمة رأسه، لم يستطع فهم ما يجري وما يقال، كان الأمر وكأنهم خططوا لكل شيء، وانتظروا فقط أن تموت أمه لينفذوا ما خططوا له، ولكنه لم يستبعد أن يكونوا قد خططوا لقتلها هي كذلك. مرر بصره على الموجودين، وتمعن في نظراتهم المخيفة والجشعة، حتى الأطفال بدوا، له، متواطئين مع ما يجري. هو وحده فقط من تفاجأ بالأمر على ما يبدو.

نفض شرف الدين بكل هدوء، وخرج من الصالة العمومية، دون أن ينطق بحرف واحد. كانت أصوات القطط في موسم التزاوج تعبر أذنيه، وتغرق في بركة الصملاخ داخلهما دون أن تستقر في دماغه، وأضواء البدر المكتمل كأنها كشافات منطقة عسكرية تتبعه حيثما توجه. اخترق هدوء الأزقة الطينية عابراً كل ما يمر حوله في لامبالاة، دخل غرفته دون أن ينير الإضاءة، وأغلق الباب وراءه، ثم توغل في ظلام الغرفة التي كانت تبتلعه ككرش حوت ضخمة. ألقى بنفسه على السرير، وظل ينظر إلى السقف الذي لم يكن يره. شعر بأن العالم يدور به في فلك ثقيل ورتيب. لم يفهم سر الحالة التي اعترته، كانت الأفكار تنهش دماغه كضباع أفريقية شرسة، وأصوات غريبة ودافئة تدق طبله أذنه بلا هوادة، وفجأة أحس بدمعة وحيدة تتسلل من عينيه، لتسيل على خده، وتستقر أخيراً وراء شحمة أذنه. دمعة وحيدة، ولكنها كانت ساخنة إلى الحد الذي جعله يغمض عينيه بقوة.

\*\*\*

ربما غفا قليلاً أو ربما لم يغف شيئاً، ولكنه أفاق على إثر خريشات في خشب النافذة، وصوت يأتيه من ورائها كنعيق البوم. تشبث بما بقي لديه من وعي يانع، ونفض متجهاً إلى النافذة وفتحها؛ فإذا بحسن البلولة واقفاً، وفي وجهه علامات يؤس بادية، أشار إليه بالسبابة والوسطى، بحركة تعني أنه يريد أن يسيرا قليلاً، نظر إليه شرف بعمق، وقال، وكأنه يحدث نفسه: "لقد جئت في وقتك!"

تسلل شرف عبر النافذة، وكان البلولة يمسك بعضا الخيزران كعادته، ومضيا معًا يختفيان داخل دخان العتمة المشوبة بظلال البدر المكتمل. كانت عصا الخيزران التي يمسكها البلولة بإهمال في يده تترك وراءها خطًا متعرجًا كسفينة تشق البحر إلى نصفين، تاركة وراءها خطًا غليظًا من الزيد. لم يكونا يتكلمان طوال الطريق، وكأنهما ذاهبان أو عائدان من مأتم يعنيهما بشكل شديد الخصوصية، ولم يقترح أحدهما على الآخر إلى أين يجب أن يتوجها، ولكنهما كانا في طريقهما إلى حقول القصب بكل ثقة.

دائمًا هناك شيء يقال، واللحظات الأكثر حزنًا مهياة للكلام أكثر من أي لحظة أخرى، فقط يتوجب علينا أن نتكلم، وأن نثرثر، ليس مهمًا أن يكون الكلام صحيحًا قواعديًا، ليس مهمًا أن يكون ذا معنى، وليس مهمًا أن يفهم الآخرون ما نقول، المهم هو أن نتكلم. أن نتنفس بعمق أثناء الكلام، أن نعرف كيف نخرج آلامنا المكبوتة عندما نتكلم. أن نجعل الكلام، كالعطس، بوابة لخروج ما يثقل صدورنا على الدوام، عندها فقط نشعر بالراحة.

كان شرف يعلم مقدار الألم الذي يحمله البلولة جراء عدم قدرته على الكلام، ومن أجل هذا، ومن أجل إحساسه المتعاضم بالمسئولية تجاهه كان يحب مجالسته، ليس من باب الشفقة، وإنما من باب التعويض. حواسنا تتعاطف مع بعضها البعض، وتعمل بطريقة تكميلية ثم تعويضية. البصر لا يدرك كل شيء؛ لذا يكمله السمع، وهو نفسه لا يدرك كل شيء؛ فيكمله الإحساس، وعندما نفقد إحدى حواسنا، فإن بقية الحواس تقوم بدورها عوضًا عنها؛ لذا لن نجد أحدًا يحسن الإصغاء والاستماع أكثر من البكم.

بعد صراع لم يدم طويلًا، قرر شرف الدين أن يمارس عادته السرية النادرة في حضور حسن البلولة للمرة الأولى، فقد أحس برغبة جارفة في البكاء والثرثرة. توقف عند منتصف الطريق الفاصلة بين حقول القصب وحانة أكيج، وصرح للبلولة برغبته في شرب الخمر؛ فهز البلولة رأسه بما يشبه الامتعاض، وانطلق وحده إلى حقل القصب، بينما توجه شرف الدين إلى الحانة، وهو يردد بعزم: "لا يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم."

كانت الحانة تعج بالزوار على غير العادة، وزوج أكيج العملاق يجلس في مكانه المعتاد، ييصق لعابه الغزير الداكن في هدوء مريب، والأحاديث الماحنة والقهقهات السافرة تنطلق من أسفل الراكوبة الخيزرانية. جلس في مكان بعيد دون أن يكثر بكل ما حوله، وأخرج علبة سجائره، ووضعها أمامه على الأرض، ووضع فوقها قداخته المذهبة. بطريقة مهنية راتبة تقدمت أكيج، وهي تحمل قارورة الخمر، وغمرت له غمرة فهم منها أنها خصته بخمر جيدة، فابتسم ابتسامة لم تتحرك لها كل عضلات وجهه، وراح يحتسي خمره في هدوء وشغف. كانت الأصوات الغريبة الدافئة ما تزال تمرح في دماغه، فأحس به ككأس مقلوبة مليئة بالأشباح واللعنات. كلب أكيج المسن يرقد أسفل مزيرة مياه الشرب، يطارد بأنياه براغيث أخرجته، أخيرًا، من سكونه الأزلي. لبعض الوقت شعر بالإشفاق حياله، ولكنه عاد وأسعده أنه يمارس كلبيته بحيوية.

لاحظ، في وجوده المتخشب ذلك، فتاة تجلس عند مدخل إحدى الغرفتين الطينيتين. فتاة لا يعرفها، ولكنها كانت تحمل في نظراتها الغربية وُجداً عتيقاً، وما أن انتبه إليها حتى تبسمت في وجهه برقة حذرة، فابتسم لها بالمقابل، وحيّاهما بكأس خمره التي كانت قد أوشكت على الانتهاء.

جال في خاطره حوار قدّم بالكاد يتذكر تفاصيله، عندما أخبره أحدهم أن النساء عندما يبتسمن لرجل؛ فهن يحاولن إخباره بمحاجتهن إلى الجنس، واعتمد في ذلك على أنه لا شيء يسعد النساء، في هذا العالم، سوى الجنس أو ما يفضي إليه. كان رأيته أن تلك نظرة متطرفة، ولكنه تمنى، بينه وبين نفسه، أن يكون صحيحاً.

لم يتذكر صاحب المقولة على وجه الدقة، ولكنه تذكر أنه شخص قليل الكلام، وافر المعرفة، لا يعيبه إلا اعوجاج في شفثيه، وأنه كان لابد أن يعيد حديثه، من بدايته، إن قاطعه أحدهم لأي سبب. تبسم ضاحكاً لهذه الذاكرة المبتورة التي تجترئ الأحداث بطريقة عشوائية. لطالما أخبره رفاقه أنه يحمل ذاكرة مُسن خرف، ولكنه دائماً ما يرد عليهم مازحاً: "الحقيقة أنني لا أشغلها بالأشياء التافهة وغير المهمة!".

رغم ضجيج الحانة الممتلئة بضحكات السكارى ونكاتهم البذيئة، وفحيح النيل رزقة الذي لا يكف، وحركة أكيج التي لا تهدأ، ودوران الكلب حول نفسه؛ إلا أنه كان يشعر بحدوء منقطع النظر، وكأن ما يجري من حوله مسرحية صامتة. كل ما كان بحاجة إليه هو بعض الطمأنينة ليعبر، بواسطتها، إلى خلاصة إنسانية يتمكن بها من اكتساب التوازن النفسي.

سخر من تهافت الأشياء من حوله، وكأنها كانت تهوي من صورتها المثلى لتسقط في صورة مسخ يتلبس كل شيء. كل شيء بلا معنى وبلا مذاق. حتى الخمر الجيدة التي بدأت تشعره بالدوران، لم يكن لها ذلك المذاق الحاذق الذي يجب. لم يستشعر تلك اللذة التي كان يجدها في معاقرة الخمر كل مرة، وأحس بأنه إنما يفعل ذلك الآن بدافع روتيني غامض، لا يملك أن يسيطر عليه. لم يعرف، على وجه الدقة، لماذا أراد أن يغيب عن وعيه، ولكن قوة خفية كانت وراء رغبته بأن يشرب حتى الثمالة.

عاجلته الأفكار المجنونة، وبدأت تلعب في رأسه، تذهب عنه بعيداً ثم تعود كأنها يويو منفلت من خيط مطاطي رقيق، معقود في مكان ما من دماغه الذي لا يكف عن إصدار الصداق. لم يشأ، في البدء، أن يغني احتراماً لملاك الحزن الذي رافقه إلى حانة أكيج، ولكنه بدأ يغني دون أن يرهق نفسه كثيراً في الاختيار:

وقدر ما يمشي في سور الزمن خطوات  
يلاقي خطى السنين واقفات  
يلاقي هواك نبت تاني وملى الساحات

\*\*\*



ملأته الخمر شجنًا، وقذفت به في جب ذكريات سحيق. هي ذات الصور الرتيبة والباهتة تمر أمام عينيه، تجعل الصداق أكثر شراسة، فلم يفهم ما إذا كان ذلك بفعلها أم بفعل خمر أكيج الجيدة. ترنح كثيرًا، قبل أن يسقط، أخيرًا، في إحدى حفر كبائن الطوب، الممتلئة بالماء الآسن. ابتسم في سخرية، وهو يشتم رائحة القونقليلز والقطن المبلول، وكانت أقوى من أي وقت مضى هذه المرة، لدرجة أنه راح يسعل بقوة، قبل أن يتمكن، أخيرًا، من النهوض، والمضي في سبيله. ساقته قدماه، أخيرًا، إلى المقبرة. وقف أمام شاهد القبر، وقرأه للمرة الثانية، ولكن بصوت عال هذه المرة: (هذا قبر المرحومة ست النفر بت جادالله مرزوق / 23 يونيه 2002). أطلال النظر إلى القبر الذي كان منتفخًا بحجم جسدها المترهل، وراه يصعد قليلًا ثم يهبط، وكأنها تتنفس بصعوبة داخله. بطريقة درامية جثا على ركبتيه، ووضع كفه على الجزء المتورم من القبر، وهو يقول: "هذه المرة أنا سأثرثر يا أمي!"

سقطت منه دمعة دون قصد، ولم يعرها أدنى اهتمام. رفع رأسه ونظر إلى السماء، وكأنه يستلهم الحكمة، ثم خفضها وغرس كفه في القبر، وتمدد جواره كطفل أرهقه اللعب؛ فقرر أن ينام في أحضان أمه.

"يا للتعاسة! كم هي الوحدة موحشة هذه الليلة! جاء أقاربنا الذين نحبهم، وأولئك الذين لا نراهم إلا في مواسم الحصاد كالجنقو ومفاوضي الحكومة، وأناس لا أعرفهم، كلهم جاءوا إلى عزائك. كانت أعينهم الباكية تخفي وراءها شماتة لم أفهمها، بعضهم ألقى الفاتحة دون اهتمام، لأنه وفر اهتمامه للمأدبة؛ نعم؛ كانت هنالك مأدبة، ثلاثة عجول تكفل بها ودالنعيم، هل تصدقين؟

نعم؛ أكل الجميع وشبعوا، وكان بإمكانني أن أرى التخمّة في أعينهم التي غاصت داخل وجناتهم، والأطفال قطعوا أوراق السيسبان، وأكلوا ثمار المسكيت، وتقاذفوا بها، أحدهم كاد أن ينهي مستقبلتي التناسلي، والأكبر سنًا كانوا يوزعون الشاي المنعنع على المعزين. أجل إنهم طيّبون!

ودالنعيم، أظهر حرصه المعهود في كل شيء: هو من أبلغني خبر موتك، وحرص على أن يتم الدفن قبل حلول المساء، قال إن تلك هي الشئنة. هرع إلى الكاملين وجلب منها الصيوان وأعمدته الحديدية، وحرص على أن يكون إلى جانبي طوال الوقت؛ وحرص على أن يؤكد لي موتك، وأطلعني على التقارير وشهادة الوفاة، هل كنت فعلاً تعاني من السكري؟

كل شيء في العيكورة تعيّر يا أمي: البيوت وأقبة البهائم والميادين والغيطان والنيل والناس، حتى أكيج أصبحت تسقي زوارها خمرًا مزيدة بالماء. أجل؛ هي أيضًا تغيرت. تزوّجت رجلًا ضخمًا ومريًا، ولكنني لا أعلم إن كانت أنجبت منه أطفالًا أم لا، وكلبها الشرس مات بلدغة من عقرب، وامتلكت كلبًا آخرًا كسولًا اسمه "بوي"! أشجار الهجليج والمورينجا لم تعد تمنح ظلالها للبشر والبهائم. باتت صغار العقارب تتقاتل على ظل الأوراق اليابسة المتساقطة من شجر النيم، تحيّلني!

فتحية؟ مازالت تشبه ودالنعميم، ولكن علامات الشيخوخة بدأت تظهر على وجهها مبكرًا. هل تعلمين؟ لقد قررت ارتداء الحجاب. قالت إنها تنوي فعل ذلك لأنه أمر رباني، وزوجها وافقها على ذلك! عرفتُ مؤخرًا أنها أنجبت طفلًا، ولم أسأل عن اسمه. ونعمات مازالت قلقة كما تركتها. أصبحت أكثر غطوسة مذ سافر الشفييع حاج مرضي إلى الخليج. أظنك لاحظت ذلك أيضًا. عواطف؟ بلهاء ومسكينة كما هي، دائمًا، منذ أن كنا صغارًا، هي الوحيدة التي لم تتغير إلى الأسوأ، إنها في انتظار أن يعود زوجها من واحات جغبوب، محملاً بالبضائع المهرية عبر الحدود، لها الله يا أمي! إني أشفق عليها كثيرًا، فشعر رأسها بدأ يتساقط أكثر من ذي قبل، وأخشى عليها من الصلع.

لا تقلقي؛ مازالت صورته في الصالة العمومية: بنظراته الحادة، وملاحمه الواجمة كعمال مناجم الفوسفات المستوحشين، أردتُ أن أنتزعه من الحائط، وأن أهشمه كما هشم أمنيائي بعناده الأرعن، ولكني لم أستطع. أجل مازلت أحشاه حتى بعد موته. أنا لم أقتله يا أمي؛ أردته فقط أن يعرف معنى أن يتمنى شيئًا فلا يتحصل عليه. تعلمين أنني كنتُ أتمنى أن أدخل كلية الفنون الجميلة، ولم أستطع أن أفهم سر رفضه حتى اللحظة، لم يكن من حقه أن يمنعني.

ولكنني لم أرغب يومًا أن أكون صورة مكررة من أحد. لماذا لم يفهم لي ذلك؟ أنت كنت تفهمين؛ أليس كذلك؟ مازالت رائحة شحنة القطن التي كان ينوي بيعها في ود مدني تسكن خياشيمي يا أمي، لم أستطع أن أتخلص منها حتى الآن، تلك الرائحة المبلولة التي تذكرني به على الدوام؛ منذ أن أجبروني على المشاركة في غسله. قالوا إنها مهمة رجولية، وإنني أصبحت رجلًا، ويجب أن آخذ مكانه. ولكنني كنت أريد أن أدرس الفن التشكيلي، تلك كانت أقصى آماني وقتها.

دعكٍ منه الآن، فلم أشعر أنه أبي في يوم من الأيام، لقد قررت أن أتزوج بوقية عبد الباسط، تعلمين أنني كنت أحبها، كما أنها مثيرة وليست ثرثرة كبقية الفتيات. سوف أسوي أموري في الخرطوم، وأعود للزواج بها، ونرحل مرة أخرى. كم كنت أتمنى أن تشهدني زفافي يا أمي!

أجل؛ ومازلت أرى الأطفال عائقًا أمام زواجنا. هذا هراء، المرأة تكذب عندما تدعي أن اهتمامها وانشغالها بطفلها تعبير عن حبها لزوجها، لأنها في الوقت ذاته لا تفهم انشغال زوجها بعمله تعبيرًا عن حبه لها. النساء كائنات أنانية، ولكن وقية شيء آخر.

أعلم أنها متدينة، ولكن تلك بصمات أبيها إمام القرية الهالك. لقد سألتني ذات يوم لماذا أصر على حلق لحيتي، فأخبرتني أنني أفعل ذلك حتى تجد مكانًا تقبلني فيه! وأقنعها هذا الرد كثيرًا. سوف تعتاد طريقي بعد مضي الوقت، لا تقلقي حيال ذلك.

أحنى رأسه إلى الأمام، كان يشعر أن عفاريت شريرة تمسك مقدمة رأسه بأصابع نخيلة وقوية، ذات أظافر طويلة وحادة، تحاول غرسها داخله، فيحسها أزاميل تحفر في جمجمته دون رحمة. صوت مزعج ظل يردد داخله: "بعض الأسرار يجب ألا تكشف!" حاول أن يتغلب على هذياناته، فلم يستطع. غاب في نوبة من البكاء، وظل يغرس كفه في القبر، ويستنشق أبخرة الموت، ويشتم رائحة أمه القريبة من رائحة القونقلير حتى نام على ذلك.

\* \* \*

لم يعرف كم أمضى من الوقت وهو نائم على قبر أمه، ولكن أصوات الجنادب وطيور الشقذ كانت توحى له بأن العالم اختفى في بطن منتصف الليل. أخرج كفه من القبر. كانت تعبق برائحة القونقلير، ولم يشأ أن ينفص عنها التربة الباردة التي علق بها. تذكر أن حسن البلولة ينتظره في حقول القصب، فنهض بحركة أسرع، وألقى نظرة أخيرة على أمه في قبرها، وقال: "أرجوك لا تغضبي مني، فقط أحببت أن أثّر معك قليلاً." غادر المقبرة، وهو يخشى أن تلاحقه لعنات أمه أينما حل. لازمه الخوف كملازمة ودالنعيم له، وتناثرت أمامه سنوات عمره يحسبها يوماً يوماً، يبحث فيها عن سبب يجعله غير مقتنع بما فعل، فلم يجد. تأرجح بين خوفه ورضاه عن نفسه، وبين محبة أمه التي كان يعشم كثيراً أن تتفهم له دوافعه، فلطالما كانت كذلك. نظر إلى بيوت العيكورة، وزرائبها، وأشجارها وهي تغرق في سراب العتمة، وأصوات الجنادب تغطي على حفيف الأشجار ونباح الكلاب. رآها كقري الجان التي تظهر فجأة ثم تختفي ثانية، كأنها تراهن على قوانا العقلية. صدره مثقل بالهواء الساخن والسعال الجاف، وقلبه كطبول قبائل بدائية يدق بقوة متسارعة. رأى ألا شيء مهم في هذا الكون، وأن تاريخه لا يحمل أشياء كثيرة تخصه. كانت الأرض تحت قدميه، كجثة فقمة مهولة، خشنة وطرية في ذات الوقت، ونباتات العشر غير المشذبة كشوارب كائنات عدمية تعيش في عصور ما قبل اكتشاف المرأة. كل شيء حوله يوحي بالكآبة والوحشة. نظر إلى الظلام بعينين مذهولتين، وكأنه يريد أن يتعرف عليه. "السواد لون العدم. هو اللالون! الوجود والحركة هما من أوجدا اللون، ولاشك أن الضوء كان أول من فض بكارة العدمية، ولكن ماذا كان لون الضوء الأول في هذا العالم؟ الضوء يعني الزمن في إحداثيات هذا الفراغ الكوني، ونحن نقاط وهمية على إحداثية الكون. محاولة تغيير الأقدار كمنازلة الذباب! كل شيء مُخطط له مسبقاً، ولكن كيف؟"

كان حقل القصب في ذلك الظلام يبدو له كقيامه سوداء، ترقص على حوافها شياطين ذوات أجنحة مشرشة لا تخفق. أدهشته قدرته على تحديد مدخله في كل مرة يلج فيها الحقل دون بوصلة، وأدرك ألا أحد من عائلة بابو يعرف

حقل القصب كما يعرفه هو. يحفظ كل شبر فيه، ومسارات الجداول المائية وتقاطعاتها، ومداخلها ومخارجها، ومتى تكون وسائل للجنس، ومتى تكون حائط مبكى، ومتى تكون جحيماً وسجناً للخاطئين.

عرف تضاريس الحقل، وتعود عليها منذ أكل إليه والده حفر جداوله من النهر، وألزمه برعايتها في إجازاته المدرسية، وما أكثر ما لجأ إليه مختبئاً من غضبه وسوطه الذي لا يرحم. أحب أعوادها، وألياف سيقانها الخشنة، واكتشف موهبته في نحت التماثيل عند تقاطع الجداول، يصنع من طين أرضها قوارب صيد، وأحصنة ووجوه بشرية، وكل ما يجول في خاطره، وأحب ذلك كثيراً.

كان حقل القصب المكان الذي شهد أولى مغامراته العاطفية مع وقية عبد الباسط، عندما كانا يتواعدان فيه بعد الزوال، بعيداً عن أعين أهالي العيكورة الفضولية. يتبادلان فيه الجنس والأحلام والأمنيات الطيبة. خشي شرف الدين أن تكون علاقة وقية به نوعاً من الانتقام من أبيها، ولكنها كانت تحبه فعلاً، وأثبتت له ذلك بشكل عملي في هذا الحقل.

## الفصل السابع

# المُتَوَتِر ... The Entonic

كان حسن البلولة ما يزال محتفظاً بملاحمه الممتعة، عندما وصل شرف الدين إلى ملتقى الجداول المائية داخل حقول القصب، حيث جلس ممسكاً بعجينة من الطين على هيئة طائر لم ينته من تشكيله بعد. نظر إليه بدافع الفضول لا أكثر، ثم عاد ينهمك في تشكيل منحوتته كما كان. جلس شرف، وهو يتكئ على كتف البلولة، ومدّ ساقه اليمنى إلى الأمام حتى أن كعب قدمه لامست سطح الجدول الهادئ. ظل البلولة منشغلاً بعجينة الطين يقلبها بين كفيه باهتمام وبراعة، بينما راح شرف يراقبه بذات الاهتمام حتى اكتملت؛ فرفعها أمام عينيه، وراح يقلبها على ضوء البدر المكتمل، وينظر إليها بسعادة غامرة، وشاركه شرف سعادته بكلمة واحدة: "تحفة!"

وضعها إلى جانبه بحذر شديد حتى لا تتكسر، ثم لكز شرف بكوعه، وأشار إلى تحديه بكلتا كفيه، فأجابته الآخر بشيء من الحياء: "أجل؛ كنتُ أزور أُمي." وبطريقة مراوغة التفت إليه وقال: "أتدري؛ شيطان بإمكانهما تنغيص حياتي كُلياً: طول اليوم الممل، وشح الموارد الميتافيزيقية!" ثم سكت قليلاً، واستدرك: "النساء كالكريم المخفوق على قالب الحلوى، وجوده ليس مهماً، ولكنه يعطي الحلوى مذاقاً أجمل." بدا أنه لم يكن راغباً في سرد أية تفاصيل عما جرى في تلك الزيارة.

لم يكن البلولة بحاجة إلى أن يحكي له شرف أي شيء، فهو يعرف العلاقة التي تربطهما، ويعرف مدى تعلقه بها، ووقف على تاريخ هذه العلاقة منذ أن تعرف عليه. في الواقع لم يكن يسمع منه إلا حكاياته مع أمه ومع وقية عبد الباسط. سمع منه كثيراً عنها وعن ثرثرتها، وعن رائحته التي تشبه رائحة القونقليز، تلك التي اكتسبتها منذ أن كانت تبيع ثمار القونقليز والدوم للأطفال أمام إحدى المدارس الابتدائية، وعن العداء الأزلي بينها وبين عمته عديلة بابو، ودعواتها الصادقة والحماسية عليها بأن تموت محترقة، وعن وصاياها التي يحفظها عن ظهر قلب، ولا تفتأ ترددها على مسامعه على الدوام عن البنات والعساكر.

"إياك والسياسة؛ فهي قمار بين الشيطان والحكومة! احذر العساكر، فهؤلاء لا تعرف قلوبهم الرحمة، فقد رضعوا حليب الضباع، وإن اقتادوك إلى مكان ما، فسوف لن تتمكن من العثور عليك مرة أخرى. تعلّم أن تقول لهم نعم دائماً لتضمن السلامة. واحذر بنات الخرطوم، فهن أخوات الأباليس، ولا شيء يصنعه سوى إغواء الشبان، وأنت ساذج وطيب ويسهل خداعك، والوحدة سوف تجعلك تناسق وراءهن."

مرت لحظات قليلة من الصمت كانت بعض السحب الخفيفة، خلالها، تشاغب البدر المكتمل، وتحجب ضوءه عن المكان؛ فيعم الظلام. تبادلا النظرات في تلك العتمة، ولم ينطقا بكلمة واحدة. لم ترسم أية ملامح أو تعابير على وجهيهما، كانا فقط ينظران إلى بعضيهما في صمت، وكأن أحدهما ينتظر من الآخر أن يقول شيئاً، أدرك شرف الدين ذلك؛ فابتسم: "أعلم أنه أنا من يتوجب عليه الكلام. لقد ثرثرت كثيراً مع أُمي، ولكن لا بأس؛ فالثرثرة معك شيء

آخر. "مد يده يتحسس التربة، ثم وضع يده على عصا البلولة الخيزرانية، وراح يرسم بها على الأرض خربشات لا معنى لها غير التوتر، والبحث عن مدخل مناسب.

"هل تعلم يا صديقي؛ اكتشفت مؤخرًا أنني بلا أصدقاء! لستُ حزينًا لهذا الاكتشاف؛ فقد كان ذلك طوعية مني أو ربما لم يكن كذلك، ولكنني لا أشعر بالفقد على الإطلاق. إياك أن تصدق هؤلاء، فهم جبناء. الجبناء والضعفاء فقط هم من يبحثون عن أصدقاء. هم يخافون الوحدة، الوحدة تشعرهم بضعفهم ولا أهميتهم؛ لذا فإنهم بحاجة إلى الآخرين لكي يشعروا بأهمية أنفسهم؛ يالللأنانية!

لا تنظر إليّ هكذا؛ تلك هي الحقيقة! هم أنانيون حين يبحثون عن جماعات ينتمون إليها، كل واحد منهم يحب أن يمارس دوره داخل هذه الجماعة؛ يفعلون ذلك لإرضاء أنفسهم وحسب. الوحدة تفضحهم، تكشف زيف أدوارهم التي يلعبونها، وتسقط عنهم أقنعتهم فيشعرون بالعري.

الوحدة تعني أن تواجه نفسك، وعيوبك، وتاريخك، وأخطائك، وهم لا يقدرّون على ذلك؛ بل يخافون منه. يضعفون أمام أنفسهم؛ لذا يذوبون في الآخرين، لأن كل واحد منهم يمنح الآخر صورة زائفة عن نفسه؛ فتنعكس من مرآة أعينهم إليه؛ فيشعر بالرضا والتقدير. اسق أحدهم من خمرة أكيج إن أردت أن تمتحن كلامي! سترى شحم وجوههم يذوب أمامك، حتى لا يظل منها إلا حقيقتهم.

أتعلم لماذا أحب الخمر بالبلولة؟ لأنها تزيل عني شوائب الآخرين التي تعلق بي أثناء اليوم. تلك الابتسامات البلهاء التي اضطر لرسمها لأشخاص لا أعرفهم؛ فقط مجرد أنهم مروا من أمامي، أو لأنهم نظروا إلى وجهي مباشرة، أو حتى لأنهم شعورًا أحمقًا بأنني شخص لطيف.

ليس هنالك ما هو أجمل، ولا أنقى من الوحدة يا صديقي، ولكن ثمنها باهظ جدًا، فهي تجعلك شخصًا مختلفًا، والاختلاف دائمًا جيد وجميل، ولكن إن لم تكن صادقًا مع نفسك بحق، فإن هذا الاختلاف سوف يجعلك تشعر بالدونية والعدمية، وعندها ستكون الوحدة انطوائية لا معنى لها غير ذبولك في ذاتك، وفنائك فيها، والخوف من الآخرين. الوحدة شيء والانطواء شيء آخر. أفضل العزلة على أن أكون محاطًا بأصدقاء مزيفين يا البلولة!

الخوف هو أصل العواطف البشرية: نخاف من الموت؛ لذا نعيش. نخاف من الوحدة؛ لذا نتزوج. نخاف من الفناء والعجز؛ لذا ننجب. نخاف من الفشل؛ لذا ننجح. الخوف هو المحرك الحقيقي وراء عمارة الأرض، ويقائنا جميعًا، وعندما يصل الخوف حدًا وجوديًا ما؛ نلجأ إلى التدن، والتعلق بأستار السماء. دائمًا يحركنا الخوف يا البلولة، وتلك هي المصيبة.

يخشى الناس عادة مما لا يرونه، ولكن الأجدد بنا أن نخشى النساء، فهن أعظم خطرًا علينا من تلك الكائنات الخرافية. تخيل أن امرأة أحبت رجلًا ما، وعاشا قصة من الحب الجارف، فإنها سوف تتحدى العالم لتتزوج عشقها

بالزواج. ولكن إن أنجبا طفلاً، وتعرض الرجل والطفل لخطر محقق، ولم يكن في إمكانها إلا أن تنقذ أحدهما، فأيهما كانت تختار برأيك؟

إن كنت تعتقد أنها سوف تختار سوى طفلها، فأنت لا تعرف النساء جيداً؛ تلك غريزة الأمومة القاتلة يا صديقي، ولو أنها فكرت جيداً لوجدت أنه من الأجدي لها أن تنقذ زوجها، لأنه بالإمكان تعويض الأطفال، ولكن الحب لا يعوض. إنها تقدم الحب والذكريات، والأحلام المشتركة واللحظات الجميلة التي قضتها مع زوجها قرايين لأمومتها العمياء، في حين بإمكانها أن تتحلى ببعض الوفاء والتعقل، ويكون بمقدورها أن تنجب طفلاً، بل أطفالاً آخرين؛ إن هي أنقذت زوجها. نحن نفكر بهذه الطريقة، ولكنهن لا يفكرن بذات الطريقة، وهنا ممكن الخطر. غريزة الأمومة أشد خطورة علينا من أي شيء آخر قد نتصوره.

إن الورطة التي تجلبها على نفسها هي أن تحاول الظهور بمظهر الرومانسي أمامهن، لأنك سوف تكون، عندها، مطالباً بأن تكون رومانسياً على الدوام، وإلا فثمة امرأة أخرى في حياتك! وعندما تطلب من زوجتك ألا تعد شيئاً على الغداء، لأنك سوف تحضر طعاماً جاهزاً عند عودتك، فإنها تغضب وتثور، لأن ذلك يعني أنك لا تحب طبخها، ولكن إذا أخبرتها بأنكما سوف تتناولان طعام الغداء في الخارج، فإنها سوف تشعر بالسعادة؛ رغم أن المحصلة النهائية قد تكون واحدة، ولكن الفارق الوحيد هنا أنها سوف تحصل على تعويض جيد، وهي، حتماً، لا ترغب في أن تضيع هذه الفرصة، وربما في وقت آخر، أو في أول مشكلة تمران بها سوف تصارحك بشكوكها حول موقفك من طبخها المنزلي.

الإنسان يا البلولة كائن لا يعقل، ولكنه يحس. هنا بالتحديد تكمن المشكلة؛ أننا في النهاية نحاول أن نكيّف تفكيرنا وفقاً لما نحس. هذه المحاولات التوفيقية خاطئة دائماً، لأننا أسرى لما نحس، وليس كل ما نحس صحيحاً أبداً. لا شيء مستقيم في هذا الكون، وحده الإنسان اخترع المسطرة عندما اضطر لإيجاده."

سكت شرف الدين قليلاً أو طويلاً، وكانت عينا البلولة تزدادان اتساعاً، وبدت السماء الليلية أكثر صفاء من ذي قبل. فضل الاثنان النظر إلى السماء لبعض الوقت، وكأنهما قررا أن يمنحا نفسيهما استراحة قصيرة، أو خلوة تأملية من ذلك النوع الذي يجعلنا نفكر فيما يجب أن يقال لاحقاً. الهواء ثقيل كعادته في مثل هذا الموسم من كل عام، وخيّل لشرف الدين أن الكون يطفو على سطح نهر ثقيل من الحمم البركانية، ونقيق الضفادع، الذي انتبه إليه للتو، ضاعف من إحساسه بوحشة الليل ووحشيته. لاحظ ابتلال ساعديه، وجبينه بالعرق الذي لا يسيل، ولا يتحرك، ولم يكتثر بتنشيفه على الإطلاق.

\* \* \*



فيما انشغل البلولة برسم دوائر متداخلة على الأرض بكعب قدمه، راح شرف الدين يتذكر، بلا مبرر واضح، ذلك اليوم الذي قرر فيه الذهاب إلى كلية الفنون الجميلة بجامعة السودان لحضور المعرض التشكيلي المعلن عنه في بوسترات منشورة في ميدان أبو جنزير، وصلات محلات بيع الذهب في السوق العربي وسط الخرطوم، وعلى المواصلات العامة، وعلى اللافتات القماشية المعلقة بين أعمدة الإنارة في شوارع العاصمة.

صادف ذلك احتفال الكلية بتخريج إحدى الدفعات، وكان المعرض أحد فعاليات الاحتفال، والذي شارك فيه عدد من الفنانين التشكيليين السودانيين وغير السودانيين، بالإضافة إلى مشاركة بعض الخريجين بلوحاتهم التشكيلية ومنحوتاتهم الفنية. وجدها فرصة لتجديد شغفه القديم الذي حاول والده محوه بالأعمال الأكثر أهمية وفائدة، من وجهة نظره.

استقبلته فتاة سمراء هادئة الملامح عند مدخل المعرض، تلقي وشاحًا من ألياف الكشمير النقي على كتفها، وتفرد شعرها المتفحم وراء ظهرها، ترتدي قميصًا واسعًا ذا نهايات مطرزة بخيوط حريرية لامعة، وبنطال جينز غامق اللون، باهتًا عند الركبتين. ابتسمت في وجهه ابتسامة أكاديمية جادة أجبرته على ردها بابتسامة أقل جدية، عرضت عليه مرافقته في جولته، وتعريفه على أقسام المعرض. عرف لاحقًا، من خلال حديثها، أنها المشرفة، والقيّمة على أعمال المعرض خلال فعاليات الاحتفال.

- يبدو أنك زائر، ولست أحد طلاب الكلية.
- هل أبداً كذلك فعلاً؟
- قليلون هم من يهتمون بمثل هذه المعارض من خارج الكلية.
- هذا تفسير مريح!
- هل تحب قراءة اللوحات التشكيلية، أم آخذك فوراً إلى قسم النحت؟
- ألا يمكنني أن أظفر بالاثنتين؟
- بالتأكيد!

راح شرف يتنقل بسرعة من لوحة إلى أخرى، دون أن يسمح لها أن تكمل شرح قراءتها لكل لوحة، وعندما نبهته إلى ذلك بشيء من التهذيب، رد عليها فوراً: "لن أعيرك عيني لتقريّ بهما؛ آنستي!" فعرفت أنه لا يرحب بصحبته، فانسحبت في هدوء راسمة ذات الابتسامة الأكاديمية الجادة، بينما احتفظت لنفسها بمزيج غريب من الحنق والفضول تجاه هذا الزائر غريب الأطوار.

لم يكن يتوقف عند كل لوحة أقل من دقيقة واحدة، إلا أنه كان مُصرّاً على مشاهدة كل اللوحات المعروضة. غمغم من وراء كفه التي وضعها على فمه: "لماذا يُصر هؤلاء على إفساد الفن بمثل هذه الأعمال الطفولية؟" بدا مستاءً من طريقة استخدام الفرشاة، والإهمال الواضح في تفاصيل الضوء والظل، وعدم استغلال مساحات اللوحة على الوجه الأكمل، كما أنه رأى أن بعض اللوحات معروضة بطريقة خاطئة.

سأه كذلك أن بعض زوار المعرض جعلوا منه مكاناً للالتقاء، وتبادل الأحاديث الجانبية، وكان يرى أن المعارض الفنية كبيوت العبادة: يجب ألا يُسمح فيها بالكلام والتشويش. سبع وخمسون لوحة هي عدد اللوحات المعروضة، لم يجد فيها إلا لوحتين فقط تستحقان القراءة والإعجاب؛ فعاد لقراءتهما على مهل بشيء من التركيز، ثم انتقل، على الفور، إلى قسم النحت.

ظلت مشرفة القسم السمرء ذات الملامح الهادئة تراقبه عن بُعد، دون أن يشعر بذلك. أحست بأنه يملك عيناً فنية ثاقبة؛ خمنت ذلك من طريقته في النظر إلى اللوحات، واستخدامه لأصابعه التي كان يمررها على اللوحة من أطرافها وحتى المنتصف بحرفية واضحة، الأمر الذي جعلها تستأذن من زميلتها في استقبال الزوار بدلاً عنها، وراحت تتبعه أنى توجه.

وقف أمام منحوتة شدد انتباهه على الفور: مجسم جبسي لرجل شبه عار، يده مغلولتان وراء ظهره، يخفي عورته بساقيه، وعلى وجهه تعابير لم يستطع الجزم ما إذا كانت نهايات صرخة غاضبة، أم بدايات بكاء حزين، أم تعابير ألم من نوع غريب ومخيف.

كان المجسم دقيق النحت لدرجة لم تدع تفصيلاً واحدة لفطنة المشاهد: العروق، العضلات، تعابير الوجه، النسب، أطراف اليدين والقدمين، تجاعيد الجلد، الشعر، تفاصيل الأذنين كل شيء كان مثاليًا إلى الحد البعيد، ودون أن يلتفت إلى الوراء:

- هل هذه إحدى أعمال طلاب كلية الفنون الجميلة أم عمل فنان عالمي؟
- ألدريك عينان في قفاك؟ كيف عرفت أنني أفء وراءك؟
- الحس الأمني يجعلني أشعر بالمراقبة.
- أنتَ إذن أحد الرفقاء!
- أنتَ قلتِ.
- إنه مجسم "المتوتر" صنعه فنان سوداني مغمور يدعى حسن البلولة.
- إنها تحفة عبقرية فعلاً.
- اسمها منقوش على لوحة الزينكوغراف في الأسفل كما تلاحظ (The Entonic)
- هل هي للبيع؟

-إنها للعرض فقط، لا شيء هنا للبيع.

كان إعجاب شرف الدين بالمجسم الجبسي بادياً للغاية، لدرجة أنه لم يلتفت إلى المجسمات والمنحوتات المعروضة الأخرى. وقف قبالة وجه "المتوتر" وأخذ يعيد قراءة التعابير مرة أخرى، وكأنه يحاول استنطاقه. رأى أن كل الاحتمالات واردة، وبشكل كبير. عينا "المتوتر" مغمضتين في ألم، وشفته شبه المطبقتين، توحيان ببقايا صرخة أو بكاء أزلي محموم، وعندما ركز أكثر؛ استطاع أن يرى أسنانه من الداخل، فنهض واقفاً، وبدأ يصفق في إعجاب شديد: "إنه شخص مجنون بالفعل!"

-ألا تنتقل إلى منحوتة أخرى سيدي؟

-أخشى أن أصاب بالإحباط.

-ولماذا؟

-لا أريد أن أكتشف أن "المتوتر" هو الشيء العقلاني المعبر الوحيد في هذا المكان.

للحظة عابرة خطر في ذهنه أن ملامح المتوتر أكثر إتقاناً من ملامح القيمة على المعرض التي لا توحى بشيء مثير للدهشة على الإطلاق، ولكنه تبسم في وجهها بنصف جدية، وهو يقرر الانصراف إلى بقية المجسمات الأخرى، وكانت سعيدة لقبوله مرافقته من جديد في جولته القادمة.

\* \* \*

أمضيا ساعة، تزيد أو تنقص قليلاً، وهما يتنقلان بين المنحوتات التي لم ترق كثيراً لشرف الدين، فراح ينتقد الأعمال المعروضة، بينما كانت تستمع إلى انتقاداته الأكاديمية بإنصات شديد. كان شغفه بالفن واضحاً بالنسبة إليها، ولا يحتاج إلى فطنة خارقة، فعيناه تلمعان كلما توقف لقراءة لوحة أو مشاهدة إحدى المنحوتات، ولا يكتفي بذلك؛ إنما يحرك رأسه في جميع الاتجاهات، وكأنه يحاول رؤية اللوحة من زوايا مختلفة ومغايرة، وعلى طريقته المفاجئة عرض عليها تناول كوب من العصير البارد في الكافيتريا المجاورة للمعرض، ووافقت على الفور.

جلسا كأخما صديقان حميمان، وتناقشا كثيراً حول الفن، وتاريخه ومدارسه، وتكلم مطولاً عن ملاحظاته التي دونها على بعض لوحات سلفادور دالي، وانتقاداته وآرائه اللاذعة التي وجهها للمدرسة السيريالية بشكل عام، وصرح عن مخاوفه من طغيان هذه النزعة على الفن التشكيلي في السودان، وعبر عن ذلك بقوله: "السيريالية إفصاح عن المكبوت الذي لا يخص الآخر، وهي بوابة إلى العبث لمن لا يدركه جيداً، ولمن لا يحسن التعامل معه."

تكلم عن لوحة سلفادور دالي "انكسار الزمن" وعبر عن سحرته لتصورات دالي الطفولية عن الزمن، وتصويره في شكل ساعة جيب من ذلك النوع الذي اعتاد أرسطقراطيو القرن الثامن عشر وضعها داخل ستراتهم، وبني نقده اعتماداً على المعارف العلمية المتوفرة في القرن التاسع عشر الذي عاش فيه دالي، ولم يستفد منها في وضع تصورات أكثر دقة وعلمية عن الزمن. قال: "كان عليه أن يستخدم الضوء في تعبيره عن الزمن!"

كما أنه عاب عليه اختياره للساعة الثانية عشر ونصف، وكيف أنه لم ينجح في اختيار توقيت أكثر فاعلية من ذلك، فقط كي تحافظ اللوحة على معناها الوجودي الأكثر رسوخاً من تداعيات الأحلام السخيفة.

"بإمكان أطفال هذا العصر أن يرسموا لوحات تضاهي تصورات دالي البدائية. السيريالية نسق بدائي لا يعترف بضرورة الظاهر، ولا بضرورة الفصل بين الواقعي والخيالي. لا بأس أن نتصور ساعة في شكل قالب بيتزا مهترئ ومبلول، فالمبدع ابن عاق لبيثته، وناقل غير أمين على الأرجح، ولكن ليس أقل من أن نتقن رسم تصوراتنا، ونجزها بصورة جيدة؛ وإلا فإن بإمكان نقاشي البناء أن يرسموا أحلامهم على جدران المنازل كذلك.

الأجدي أن يكون الفن تفسيراً للأحلام، وليس حلمًا موازيًا، أليس كذلك؟ إنه لمن الوقاحة أن يتدخل أحدا بتفسير رؤى الآخرين وأحلامهم. الأحلام، في أساسها، تفسيرات وتصورات لواقعنا الخاص، فكيف لنا أن نتجرأ ونفسد هذه التصورات بتفسيراتنا الخاصة؟"

ظلت تستمع إليه باهتمام بالغ، دون أن ترد على تساؤلاته التي لاحظت أنها لم تكن تساؤلات بحاجة إلى إجابة، بقدر ما كانت تساؤلات تفتح آفاقاً واسعة للبحث والتأمل، غير أنها خمنت أن يكون منتمياً للمدرسة الواقعية، ولم تأبه كثيراً لهذا التخمين. اكتفت، في كل ذلك، بهز رأسها علامة على المتابعة، وراحت تدون ملاحظاته وأفكاره باختزال شديد.

لاحظ شرف الدين فجأة، وهو يحاول مناداتها، أنه لا يعرف اسمها؛ فابتسمت في ذات الهدوء الذي لم يفارقها للحظة:

- سوسن عباس، وأنت؟

- شرف الدين بابو.

- أنا خريجة فنون جميلة، ولدي أعمالي الخاصة.

- أنا موظف في قسم خدمة العملاء في البنك الزراعي.

- موظف بنك؟

- الدهشة سؤال علي أم إجابة مُبطنة؟

- لم أعرف أن موظفي البنوك لديهم اهتمامات فنية!

- هذا لا يعني شيئاً بالنسبة لوضعي. أنا موظف طارئ؛ بإمكانك اعتباري كذلك.

ظل يُدهشها بإجاباته الغريبة، ولكنها أحببت تلك الغرابة، وعشقت تلك الدهشة التي يمنحها إياها. النساء كائنات مُلغزة وغامضة، أو هكذا يرددنا أن نراهن؛ لذا يأسرهن الرجال غريبو الأطوار والغامضون. تلك واحدة من أسرار الطبيعة. لاحظت أنه لا يضحك كثيراً، وغالباً ما يكتفي برسم ابتسامة حذرة أو وقورة، وعندما سألته عن ذلك، رد ببرود وثقة: "لا أريدك أن تبدي كفتاة مُضحكة، ولا أريد أن أبدو كرجل ضاحك!" بصعوبة بالغة استطاعت تجاوز تلك العقبة، والعبور بالنقاش إلى آفاق أوسع، فتكلما حول كل شيء تقريباً، وكانت بالكاد تتفوه بجملته مكتملة:

- نحن، السودانيون، من أكثر الشعوب احتفاءً بالجنس؛ لاسيما النساء
- ربما جانبك الصوب في ذلك. المرأة غير مصرح لها بالإفصاح عن رغباتها ومشاعرها، لاسيما الجنسية. إنه قهر المجتمع الذكوري، أليس كذلك؟
- تلك هي الحجة الأزلية. كل ما تفعله النساء بحضرة الرجال يفضي إلى الجنس، حتى ولو لم تكن تشعر بذلك.
- كيف؟

- خذي ظاهرة "الدخان" على سبيل المثال، ألا تعتبرينه احتفاءً واضحاً بالجنس؟
- ولماذا تعتبره كذلك، إن دخان خشب الطلح والشاف لهما فوائد كثيرة للنساء غير ما ترمي إليه، فهما يمنحان الجسد نعومة ترغب فيها النساء حتى بدواعي الاهتمام الشخصي، كما أنهما يستخدمان كمُعقم جيد للمهبل من آثار السوائل التي قد تؤدي إلى كثير من الأمراض، أضف إلى ذلك فإنه يستخدم لمحاربة الصداع.
- إذا كانت تلك فوائده، فلماذا لا تستخدمينه؟
- ببساطة، لأنني لست متزوج....!
- أرايت! عقلي الباطني يربط الدخان بالزواج، ولا شيء مختلف في حياة المتزوجة عن غيرها إلا الجنس. ألا ترغب غير المتزوجات في تجنب الصداع؟ ألا يرغبن في بشرة نضرة وناعمة؟ ألا يرغبن في تطهير أعضائهن التناسلية لأنفسهن؟ وماذا عن رقيص العروس؟
- ربما كنتَ على حق. ألا تلاحظ أن الجو جميل هذا النهار؟

كان الجو هادئاً كملايحها تماماً، وأشجار الجميز العملاقة ترمي بشمارها غير الناضجة وظلالها الأسطورية على الجالسين في الكافتيريا، وطيور السمان والحمام البري تنتقل بين الأغصان في رشاقة ملفقة للأنظار، وأصوات العربات في

الخارج والناس تتداخل لتضفي على لوحة المكان ألماً آخرًا أكثر دفئًا وحميمية، بينما كان بإمكانه أن يسمع صوت أحدهم قادمًا من مكان ما وهو يهتف:

ها مرة أخرى سنخرج للشوارع  
شاهرين هتافنا  
ولسوف تلقانا الشوارع  
بالبسالات المضادة للعساكر  
والمساخر، والخنوع  
ها مرة أخرى سنصعد فوق هذا الاختناق  
إلى عناق البندقية  
سيدي ..

إن الرصاصة موعدي  
للاحتفاء بوجه ماريل الحبيبة  
أو بخاطر ما أكون  
هذي الشوارع علمتنا أن نفيق  
أن نبرّ البرتقالة  
أن نموت فدى الرحيق  
يا أخوتي ضيقوا ليتسع الطريق

في ذلك الوقت، كانت سوسن تحاول التهرب من مناقشاته المخرجة، وبدأت تعرض عليه بعض لوحاتها التي رسمتها بقلم الرصاص على دفتر الرسم، وأخذتا يتناقشان حولها، وحول الإمكانات اللاحقة للرسم بالرصاص، واللمسات التعبيرية التي يمنحها للوحة.

نصحها بالتوقف عن الرسم على الورق الملون، وضرورة الاعتماد على الأوراق البيضاء، واستخدام الورق الخشن بدلًا عن الورق الأملس الذي بلا تعابير، ونصحها بأن تركز أكثر على دراسة نسب الأشياء، والاهتمام بها، واستخدام أصابعها لشطف البروز والتواءات الخارجية، عوضًا عن المنديل الذي يسلب رسوماتها طابع الصدق والتأثير.

عندما انتهيا من الكلام، صمتا قليلًا لفترة كانت كافية لأن يشعر بالملل، فاستأذن منها معلنًا أنه قرر مغادرة الجامعة. حاولت أن تحصل منه على وعد بتكرار الزيارة؛ إلا أنه لم يفعل، وأشهر جملته المحبطة في وجهها: "لم أكن أتوقع أن تكون كلية الفنون الجميلة مملة إلى هذه الدرجة."

عندها وقفت، وبدأت بتجميع أوراقها، وابتسمت ابتسامة مجاملة، ثم صافحته، وغادرت قبل أن يتركها هو، لكنه ظل جالساً لبعض الوقت حتى سمع صوت ضحيج قادم من بعيد. شيئاً فشيئاً عرف أن مظهرة ما على وشك أن تتخلق داخل الجامعة، فقرر الخروج.

\* \* \*

أفاق بوكرة أخرى من كوع حسن البلولة الذي أشار إلى السماء، فلاحظ أنها امتلأت بغيوم داكنة، وبدأت ترسل زخات خفيفة ومشغبة من المطر، فابتسم وهو يقول: "لا بد أنها خدعة إلهية ما، فهذا ليس أوان المطر." ضحكا لبعض الوقت، وراحا يراقبان تأثير تلك الزخات المتساقطة على سطح الجدول الساكن. التفت شرف إلى البلولة وكأنه تذكر شيئاً:

"في إحدى ليالي الخرطوم الماطرة، كنتُ أجلس في شرفة الشقة، أتابع هطول المطر باهتمام. كان ذلك أمراً ممتعاً للغاية. أتعس الأمطار تلك التي لم تهطل على شوارع الخرطوم يا البلولة. لقد فوتت على نفسها فرصة عظيمة! ليس أجمل من أن تشهد مولد التقاء الأرض بالسماء في عرس طيني مهيب. تلك كانت بداية الحياة كما يُقال، ولكن للأمطار في الخرطوم رائحة شديدة الخصوصية، فهي تحمل في جريانها روائح السكة الحديدية، وجواليص الأحياء المتطرفة، والزرائب، والفنادق الفاخرة، والمزارع المهجورة، وطمي النيل، والحانات، وبيوت الدعارة، وحتى التاريخ يا البلولة! تشتم كل ذلك في وقت واحد، وفي ليلة واحدة. في سنة من السنوات؛ هطل المطر. كان جاري الذي يقطن في العمارة المقابلة يحمي حبيبته من زخات المطر بسترته، ويركضان في مشهد لا يتكرر كثيراً. في السنة التالية كانا يحميان طفليهما بذات السترة، ويركضان. عندها أحسست بشيء غريب فعلاً."

كان البلولة يرسم ابتسامته البكماء الوادعة، وهو ينظر إليه بعينيه المذهولتين، وراح يمسح على ركبتيه، وكأنه يحاول أن يواسيه، أو يشاركه شيئاً من دفء تلك اللحظات التي طرأت في خاطره، ثم وضع قبضتيه تحت إبطيه وحرك ساعديه، فتنهد شرف وهو يهز رأسه: "أجل! لا بد أن نخلق يوماً كالعصافير الطليقة." تنهد مرة أخرى عندما داهمته الواقعية بوطأتها الثقيلة، فتذكر اتفاق أخوته على بيع منزل العائلة، والانتقال للعيش في الخرطوم والاستقرار بها، وتلك النبرة النفعية التي استشفها من كلامهن، ونبرات ودالنعم التي بدت أكثر استغلالية وجشعاً. فريت على ركبة البلولة:

"لا تخف يا صديقي، سوف ترحل معي، ونعيش معاً في شقتي، ونقتني لوحات تشكيلية، ومنحوتات فنية بديعة، لقد رتبْتُ كل شيء، ودونت قائمة الأشياء التي نحتاجها: فانوس إضاءة ليلي ملون، ونافضة غبار من ريش الطاووس، وممسحة أقدام من القش المضغوط، وجوارب منزلية من فراء الأرانب، وطقم من تماثيل الفيلة الأفريقية، وشموع معطرة للجو، ومغسطس مياه هوائي.

كل شيء مدوّن في قصاصة احتفظ بها. الترف، والحياة المخملية هو كل ما نحتاج أن نتظاهر به. سيكون بإمكانك أن تعيش حياة أفضل من هذه. هذه الحياة تستحق أن نعيشها فعلاً. هل تعلم يا البلولة؛ شخصان لا يستمتعان بجمال هذا العالم: الأعمى والحاقد. وأنتَ لست أحدهما، تستحق أن تعيش هذه الحياة، وأن تستمتع بها. لا بأس أن تحزن قليلاً أو كثيراً، فالحزن حاسة إضافية لا يتمتع بها إلا القلة من البشر، فقط عليك ألا تجعله عقيدة لك."

ابتسم البلولة في امتنان، ومال بجسده إلى الناحية الشمالية، وأمسك بعصا الخيزران، ووضعها بين ساقيه، ونام. نظر إليه شرف الدين، وكان قد أفرغ حمولته من الحزن اليومي بعد كل الذي قاله، ومال بجسده إلى الناحية الأخرى، ووضع كفيه بين فخذه، ونام.



## الفصل الثامن

# ذكريات مشوكة

صباح العيكورة كان مختلفًا ذلك اليوم، ورذاذ المطر الليلي أضفى على أرضها الطينية الحمراء بريقًا، كأنه مخمل مرجاني ألقي على ظهر فيل هندي. عادت طيور أبو القردان تظهر على ظهور الجواميس الهزيلة، وعلى ضفاف النيل، تنقب بمناقيرها المدببة أرض العيكورة الرطبة، تستخرج من بطنها الديدان التي قررت الانتحار على طريقته. الشمس تبدو مسالمة للغاية، وكأنها تتنفس من رئة واحدة. النيل الأزرق هادئ كعادته في مثل هذا الوقت، وذات الرائحة الغريبة تنطلق من غيطان الباذنجان والبرسيم المهجورة، وهديل الحمام، المتهافت على فتات الخبز الناشف، لا يكف، والبلشون الرمادي يشاغب حواف النهر، ويتغزل بأواجه الفضية. هكذا تستحم طيور البلشون العيكورية كل صباح، ولكن هذا الصباح كان مختلفًا ولاشك.

في الجانب الشرقي من المنزل العائلة، كانت عواطف بابو تطرق باب الغرفة المتطرفة، حيث اعتقدت أن شرف قضى ليلته فيها، وعندما فتحت الباب ولم تجده على فراشه، أطلقت من صدرها تنهيدة ساخنة، وسارعت بإخطار بقية أفراد العائلة الذين كانوا يتناولون طعام الإفطار في غير موعده، أمام المطبخ الذي بلا باب. كان ودالنعم منهمكًا في الأكل لدرجة أنه لم يشعر بشيء على الإطلاق، حتى لكزته فتحة: "ألم تسمع يا رجل؟ لقد غاب شرف ثانية. لقد سئنا هذا الأمر، ويجب وضع حد له." مدّ ودالنعم يده إلى كوب الماء البارد، وارتشف منه قليلًا، ثم قال: "لا تقلقن، أعلم أين يمكن أن نجده. لقد أعددت كل شيء، وسيتهي هذا الأمر قريبًا." وواصل تناول طعامه مرة أخرى.

نعمات التي دخلت للتو، وهي تحمل طبقًا من سعف النخيل، أبدت استياءها الواضح من الأمر، استشاطت غضبًا مما سمعته. ألقت طبق السعف أرضًا، وعضت ظهر سبابتها، وأضافت متبرمة: "لا بد أنه عاد ثانية إلى النوم في حقل القصب. لو أنه فقط يعود إلى رشده!" حرك ودالنعم كفه الأيسر مطمئنًا إياها، وقال، والطعام يملأ فمه: "هذه المرة سينتهي الأمر؛ وإلى الأبد، ولن يقف في طريقنا شيء."

\* \* \*

لم يكن يعوزهم سوى القليل من الجهد لإيجاده بين سيقان القصب المتشابكة، وعندما عثروا عليه نائمًا، وبين فخذيه عصا الخيزران، مصممت عواطف شفيتها في إشفاق، وهي تقول: "ها قد عاد مرة أخرى لعصا الخيزران!" استيقظ شرف الدين على صوت ودالنعم الغليظ وهو يوقظه: "قم يا شرف. لو أعلم فقط المتعة التي تجدها في النوم في حقل القصب!"

رفع شرف رأسه بتثاقل، وبقايا النوم ما تزال تشبث بأجفانه بقوة. لم يستطع أن يرى ملامح الواقفين فوق رأسه بوضوح، كانت أشعة الشمس تحول دون ذلك، فبدوا له وكأنهم كائنات طيفية بلا ملامح على الإطلاق، وما إن رأى

أحد هذه الكائنات تمد يدها نحوه حتى انتفض مذعورًا. "هدئ من روعك! هذا أنا ودالنعيم. قم معنا فقد تأخر الوقت. أنسيّت أننا سنذهب اليوم إلى الخرطوم؟" لم يستطع استجماع ذاكرته بسرعة؛ إلا أنه راح يلتفت من حوله، وكأنه يبحث عن شيء ما، ثم هدا فجأة.

استقام شرف في جلسته على الأرض، وراح يمسح بباطن كفيه رواسب النعاس العالقة على عينيه. كانت أشعة الشمس تتسلل بخفة بين سيقان القصب، صانعة بذلك خيوطاً ضوئية متقاطعة، بدت كخيوط العناكب، تنتهي لترسم دوائر متباينة الأحجام على الأرض الطينية من حوله. تمطى قليلاً قبل أن يقول لهم في هدوء: "لا بأس اذهبوا إلى الخرطوم إن شئتم، وسألحق بكم أنا وصديقي البلولة." عندها قفزت نعمات في سخط، ورمقته بعيني شيطان غاضب:

- ألن تكف عن ذكر صديقك هذا أبداً؟ قم معنا الآن.
- قلت اذهبوا أنتم، وأنا وصديقي سنلحق بكم، ربما نستقل الحافلة التالية مباشرة.
- أيّ صديق يا شرف؟
- حسن البلولة!
- مازلت مُصرّاً على قول ذلك؟ متى تفهم أنه لا وجود لهذا الشخص على الإطلاق؟

ذهلت عينا شرف وهو يسمع كلام نعمات. ظل ينظر إليها لفترة من الوقت، ولكنه قاطع تلك النظرات بأن رفع منحوتة الطائر الطينية بيده، وأشهرها في وجهها:

- انظري، إنه من صنع هذه المنحوتة الطينية. إنه فنان عبقر!

راح الجميع يتبادلون النظرات فيما بينهما؛ فيما تقدمت عواطف، وجثت على ركبتها أمامه، وهي تمسح على شعره الهجين الأملس:

- شرف حبيبي، لقد كنت شغوفاً بصناعة المنحوتات الطينية منذ صغرك.
- ولكن هذه المنحوتة صنعها حسن البلولة بيده، ووضعها إلى جانبه قبل أن ينام.

زجر ودالنعيم وهو يضرب كفًا بكف:

- لا أحد في العيكورة كلها يحمل اسم حسن البلولة، أو حتى لقب البلولة. فهل تعرف بيته أو أين يسكن؟

سكت شرف لبرهة، وسرح بخياله وهو يتفرس في وجوه من حوله. كان على الدوام يفهم استيائهم من ذكر البلولة أمامهم على أنه استياء أسري غامض وعابر، مصدره عدم تقييمهم للفن، أو عدم احترامهم لاختيار لأصدقائه، ولكن الأمر بدا له جديدًا هذه المرة.

- ما الذي تريدون قوله؟ ما الذي تريدونه مني بالضبط؟

- شرف يا حبيبي يجب أن تعود إلى المصحح النفسي فورًا، لقد رتب ودالنعيم كل شيء، وعثر على التقارير الطبية القديمة. تلك كانت وصية أمك. نحن نخشى أن تزداد حالتك سوءًا، فلا تجعلنا نقلق عليك أكثر من ذلك.

لم يستطع شرف أن يصدق ما يسمعه. تلك النظرات الجشعة التي رآها في أعين أخوته، ازدادت شراسة. لقد قتلوا أمه لأنهم يعرفون مدى تعلقه بها، وهاهم الآن يحاولون إيهامه بأنه مجنون ليستولوا على التركة. ردد بصوت سمعه البعض، ولم يسمعه الآخرون: "هل يفعل المال كل هذا؟" تراجع إلى الخلف مستندًا على كفيه ثم نهض، وهو يرمقهم بنظرات حانقة ومحتقرة، وكان على وشك الهرب؛ لولا أن أمسك به ودالنعيم وحمله عنوة، وهو يصرخ: "دعوني. دعوني أيتها القتلة!" حتى اضطر ودالنعيم إلى لكمة لكمة أفقدته وعيه.

\* \* \*

أفاق شرف ورائحة القطن المبلول تملأ خياشيمه. وجد نفسه مقيّدًا إلى عنقريب الجرتق، وأصابع العفاريت النحيلة تمسك رأسه تكاد تقتله بالصداع. وعشرات الأصوات الأزلية تتحدث إليه في وقت واحد. شعر بأنه سقط في بئر من الحناجر الثائرة: نداءات، وصراخ، وعويل، وأناس يتكلمون بصوت عال، وضحكات هستيرية، وأصوات كؤوس وأطباق تتساقط، وطبول، وأمواج متلاطمة. لم يكن بحاجة إلى أن يفهمها؛ بقدر ما كان بحاجة إلى أن تصمت، وتفسح في دماغه مساحة لاستيعاب ما يجري.

كل شيء من حوله كان مبهمًا ومُلعغًا. حاول أن يفهم، ولكنه لم يثق فيما يراه وما يسمعه. عواطف تبكي على سرير نائي، وقد غطت وجهها بوشاح أخضر، وفتحية تجلس إلى جواره، وشفثاتها تتحركان دون أن يسمع لهما صوتًا، ونعمات تقف أمامه مباشرة، وقد وضعت كفيها على خصرها المترهل، وودالنعيم يتكلم في هاتفه المحمول بعصبية. ورغم أن المشهد من حوله بدا حيويًا وصاحبًا، إلا أن الهدوء كان يعم المكان، بينما تركز الضجيج في رأسه فقط. حاول أن يصرخ، ولكنه لم يستطع، أو ربما فعل وغرق صوته في سكون المشهد الصامت. ظلت رائحة القطن

المبلول تتنامى من حوله كأغصان نباتات متسلقة سامة تلتف حوله، وتستقر في أنفه؛ فتعيده قسراً إلى ذكريات لم يشأ أن يتذكرها على الإطلاق.

خيّل إليه أنهم قد قرروا إلقاءه في مياه النيل مقيداً إلى العنقريب، فلم يكف عن الهياج. أحس أن أعصابه وشرابينه سوف تنفجر من وراء جلده، لترضي حاجته إلى الصراخ. وبطريقة ما، أحس أنه بحاجة إلى خمر من يد أكيج، من نخبها الأول، وحرك شفثيه بجملته الأبدية: "لا شيء يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم!"

ثمانية أعين، ما بين باكية، وواجمة، وقلقة كانت ترمقه، وهو ممدد كتمساح متختم وقع في شباك صيادين محترفين. خارت قواه من محاولاته الفاشلة للفكاك من قيده. بعدما يئس من كل شيء، أغمض عينيه محاولاً استعادة رباطة جأشه، وقرر أن يستفيد من خبرته الطويلة في قراءة الشفاه مع حسن البلولة.

فتح عينيه على مهل، فرأى ودالنعم وهو يرت على كتف فتحية، وشفثاه تقولان: "لقد كلمته، ووعدني أن يأتي بأسرع ما يمكن." وانتبه إلى تطاير رذاذ لعابه، وهو يقول جملته تلك، بينما راحت شفثاه تكرران: "يا رب .. يا رب"، إلا أنه لم يتمكن من قراءة شفثي نعمات اللتان كانتا تتحركان دون توقف.

شيء ما تحرك داخل صدره، لم يعرف كنهه على وجه الدقة، ولكنه شيء مريح ومزعج في ذات الوقت. شيء كتحايل تاريخين أو أمينتين. شيء جعله يهدأ، ويكف عن مراقبة شفاه من حوله. أغمض عينيه مجدداً، وراح يبحث عن ذلك الشيء الغريب الذي بدأ يتخلق داخله. ظنه بأنهم قرروا قذفه في مياه النيل كان بحاجة إلى مبرر يحوله إلى يقين، فحمن أنهم ربما سمعوه، وهو يتكلم عند قبر أمه، وعرفوا أمر قتله أباه؛ عندها شعر بالطمأنينة.

"إنه القصاص إذن! لا بأس؛ فبوسعي أن أحسم أمر إيماني بشكل قاطع هذه المرة، فليس من مجال لحسم هذا الأمر إلا بالموت. ولكنني لم أشأ أن أقتله، أردته فقط أن يعرف أنني غاضب منه، وأردته أن يجرب نكهة العجز عن تحقيق ما يحتاجه، ولست نادماً على ما فعلت، لأنه كان يجب أن يكون."

صوّرت له نفسه أنه كان بحاجة إلى مثل هذه الحيلة لكي يحسم مسألة وجود الله من عدمه بشكل جذري، واكتشف ذلك للمرة الأولى. الأمر الآخر الذي أحس به كان خوفه من الموت الذي اكتشفه للمرة الأولى كذلك: "ترى؛ كيف سيكون الموت؟ وكيف ستكون رائحته؛ هل كرائحة القطن المبلول، أم كرائحة القونقلير، أم سيكون لموتي رائحة أخرى؟"

راودته ذكريات مزعجة ظنها متأمرة عليه، رأى نفسه جالساً على كرسي خشبي، تحت ظلال جميز عملاق، وفتاة سمراء هادئة تبتسم في وجهه ابتسامة مجاملة، وتغادر المكان. سمع هتافات بعض الطلاب، وضجيج سيارات

الشرطة، ونداءات هستيرية: "حاصروهم، اذهبوا من الجهة الأخرى." رأى نفسه راكضاً وسط ضباب دخاني أبيض كثيف، وهو يغطي وجهه بأوراق النيم. حاصره رجال الأمن، جادلهم بأنه ليس طالباً في الجامعة، ولكنهم اقتادوه بالقوة. يتذكر جيداً ذلك المبنى الغامض، المغطى بأكمله بأغصان الجميز المتشابكة، وتلك القطط التي على سور المبنى، وهي تنظر إليه في شماتة أو في رثاء، وشتائم رجال الشرطة، والركل بالأقدام، والضرب بالأحزمة.

الصورة الأكثر وضوحاً كانت لشاب ثلاثيني بدا مرحي، خفيف الظل وصاحب نكتة، مهندهم الثياب، لين الصوت. رأى نفسه وهم يقتادونه إلى غرفة خالية من الأثاث. تذكر اضطراره الأول للكذب عندما سأله الرجل عن اسمه، فلم يجد إلا اسم حسن البلولة جاهرًا في ذهنه، وكذبتة الثانية عندما أنكر انتماءه للشيوعيين. رأى الرجال عراة الصدر، مفتولي العضلات، وهم يجردونه من ملابسه، ويحاولون اغتصابه.

أفاق فرغاً، وهو يصرخ بمستيريا ألهمت المكان، ونشرت الذعر. ظل يردد دون أن ينظر إلى شخص بعينه: "لا .. لا، أنتم تصرون على زرع الوهم في رأسي، يا كلاب." غادرت عواطف الغرفة راكضة، وهي تبكي، ولم يكن في وسعها رؤية أخيها في تلك الحالة.

\* \* \*

وصل إسماعيل جقاق (طبيب القرية المجاورة)، وهو نفسه من يلجأ إليه أهالي العيكورة لعلاج مواشيهم وبهائمهم في فصل الخريف، ومواسم التزاوج. رجل أصلع إلا من بعض الشعر المتفرق في مؤخرة رأسه، يرتدي بالطو الأطباء الأبيض فوق جلباب من نوع "على الله"، وبدت عليه علامات الاستياء والاشمئزاز. كانت برفقته سيدة دميمة، غير متناسقة الجسم، تقاربه في الطول، ذات شعر مجعد وقصير كألياف جوز الهند، ولها ذات ملامح الاستياء والأنفة. بدا الاثنان وكأنهما سيقدمان فقرة بملوانية مضحكة، أو هكذا تخيل شرف، وهو يراقب تحركاتهما في هدوء ساخر.

لم يطالب بإخلاء الغرفة، كما هي عادة الأطباء، وإنما باشر عمله بإجراءات روتينية في البداية، هدف منها إظهار مهاراته المهنية. أخرجت مساعدته الدميمة وعاء من الكروم المتآكل من حقيبتها، وبدأ يغسل يديه في الوعاء، تماماً كما يفعل قبل فحص عنزة عشراء، ثم طلب منها إيجاد أحد العروق في ساعد شرف الذي كان ينظر إليهما بعينين مدهولتين، ثم حقنه بمادة استخرجها من حقيبتها القماشية.

تمكن شرف، قبل أن يغيب عن وعيه، من رؤية بعض أهالي القرية الذين تجمعوا حول عنقريه، ونظرات الإشفاق والرثاء تتقاذف من أعينهم، وتطعنه في صدره. حتى الأطفال الذين تحلقوا حوله، كانوا يتفرجون عليه من وراء ثياب أمهاتهم، وفي أعينهم الفضولية نظرات دهشة وانتباه، وكأنهم أمام عرض سيرك حيواني مثير. أحس بالأسى والوضاعة لذلك، وسالت من عينيه الناعستين دميعة ملؤها الكبرياء، ثم غط في سبات عميق.

-ماذا حدث يا دكتور؟

-لا تقلقوا؛ لقد أعطيته حقنة مورفين ستجعله ينام لبعض الوقت، وحين يفيق سيكون قد تحسن قليلاً، ولكن يجب أن تنقلوه إلى مستشفى التجاني الماحي، فحالته تتطلب متابعة صحية لصيقة ومتخصصة.

خرج الجميع من الغرفة استجابة لنصيحة الطبيب الذي أوصى له بالراحة والهدوء التامين، وأخذوا يحرقون، ويضربون كفاً بكف؛ فيما كانت عواطف لا تزال تبكي في الخارج. أصرت على الدخول إليه، والبقاء إلى جواره، ولم يسمحوا لها بذلك؛ إلا بعد أن أقسمت بالأسلاف، وأولياء الله الصالحين، وقبائهم المقدسة أن تظل هادئة، وألا يصدر منها ما قد يزعجه.

دخلت على مهل، وكأنها تحاول اختبار قدرتها على الإيفاء بالوعد، والقسم الذي قطعت على نفسها أمام الجميع. جلست إلى جواره، وراحت تمنع النظر إليه، وكأنها تراه للمرة الأولى. كانت ملامحه متعبة، وبقياء عرق مملح على رقبته وجبينه، وشفتاه فاقدتان لنضارتهما المعتادة، وأضفت شعرات لحيته غير المشدبة مزيداً من ملامح البؤس والإهمال على وجهه؛ كل ذلك بدا أكثر بؤساً من وراء زجاج عينيها المبلولتين ببقايا بكاء حديث العهد.

عرفت عواطف أن النساء، اللواتي جئن مسرعات على إثر مرور إسماعيل جقاجق بالقرية، سوف يمضين الوقت في الحديث عن شرف الدين، وعن محتته مع المرض، وتاريخه، وأنهن، مع الوقت، سوف ينصرفن إلى النسيمة، وتناول التوفاه، حتى ينتهين من شرب الشاي بالحليب مع البسكويت المنزلي الذي تبرع نعمات في صنعه، دون أن يراعين قلق الأسرة على هذا المسكين.

مرت أمام عينيها ذكريات حميمة حرصت على الاحتفاظ بها طازجة، ككل أشياءها الخاصة التي تحتفظ بها في خزانة ملابسها، بأكثر مما تعني مجرد العناية. ذكرياتها مع شرف الدين الممدد أمامها كجثمان هالك، لا تقدر حتى أن تمرر كفيها عليه، أو أن تبكيه بتفان وذمة. راحت تمش الذباب عن وجهه وصدره العاري بطرف وشاحها الذي بلون حساء البازيلاء.

كان قلقها عليه يتسلسل من تحت جلدها كأسراب نمل متوحش، تقتات على خلاياها العصبية، والدموع لا تكف عن السيلان، وحرصت أن يكون كل ذلك في صمت مطبق. تذكرت اللحظات المتوترة التي خلّفها رفضه لزواجها من عبد المنعم شكرالله داخل الأسرة، وإلحاحه عليها بأن ترفضه، وأن تصر على إكمال دراستها. ومازالت كلماته تحوم في ضميرها كأرواح خيرة. تتذكر أيضاً موقف العائلة من ذلك، ووسوسات عمته عديلة التي أرادت أن تراها عروساً قبل أن توافيها المنية.

"شرف الدين شاب فاشل، وسوف يجرك معه إلى مستنقع فشله؛ إن أنت استمتعت إليه" تتذكر هذه الجملة التي ظلت العائلة بأسرها ترددها على مسامعها، وتقارنها بنصائح التي كان يقوله لها سرّاً: "سيقول الناس عنه أي شيء،

ولكنه يظل في النهاية لصًا جاهلاً لا يستحقك." ولم تستطع أن تحابه إلحاح أمها، ووسوسات عمتها طويلاً، فالانتان أرادتا أن تطمئنا عليها قبل موتهما.

نظرت إلى قدميه الحافيتين، كأثما محفورتان من خشب السنديان العتيق، وأظافره التي حملت طين كبائن الطوب الأحمر، وأوساخها ذات الرائحة النتنة. تذكرت معه معاملة والدها القاسية له، وأمنيته التليدة في أن يصنع منه رجلاً يعتمد عليه؛ لاسيما وأنه جاء بعد ثلاث تجارب تناسلية محبطة، لم تنتج غير إناث.

يعرف الجميع قسوة عبد الرحيم بابو على ولده، ويتندرون بتلك الحادثة التي عاقب فيها بابو ولده، لذنوب لم يفصح عنه، بأن ربط يديه إلى ذيل الحمار، وسار به إلى بيته قاطعاً مسافة تزيد عن ثلاثة كيلومترات. كان سن شرف الدين، وقتها، لا يتجاوز الحادية عشر، وكرر ذلك أكثر من مرة على فترات متباعدة. خمنت أن ذلك ما منحه تلك الطاقة المتوحشة في السير على الأقدام لمسافات طويلة، عندما ظل يخنفي عن القرية؛ ليجدوه بعدها في أماكن غريبة وموحشة، حتى استقر به الأمر أخيراً في حقول القصب الممتدة بمحاذاة النهر.

ظلت عواطف تحمل طاقة عاطفية مهولة، حاولت إفراغها مع أسرتها؛ فسخرها منها، ومن رومانسيته التي تأتي في أزمنة المجاعة، والقحط، ونفوق البهائم. ثم حاولت إفراغها مع زوجها؛ فلم تفلح، وانتظرت أن ترزق منه بأطفال تفرغ فيهم عاطفتها تلك، ولكن عبد المنعم شكرالله كان كالكاره للراحة؛ لا يفتأ يتنقل من بلد إلى بلد سعياً وراء ثروة تجعله كمختار عوض الجيد، تاجر الفول والسعوط. حاولت يومها ألا تبدو عاطفية وهي تنصحه: "إذا أردت أن تنجح؛ فأتقن صنعة واحدة!" ولكنه كان يريد الثراء لا النجاح، وظل يتحوّل بين الأعمال المختلفة كلما سمع أنها تجلب له الثروة التي يريد، حتى خلس أخيراً إلى تهريب البضائع من ليبيا.

مر وقت طويل، لم تكثر عواطف لحسانه، وهي في مكانها تمش الذباب عن وجه أخيها وصدره العاري، تراقب عينيه بإلحاح شديد، وكأنها تتوقع أن يفتحهما في أية لحظة. بعض الذباب ترك وجه شرف الدين المحفوف بالمخاطر، وقرر مهاجمة وجهها الساكن كلوحة الجيوكاندا. ابتسمت عواطف، بحذر، وهي تقول في سرها: "الذباب لا يحب الراحة أبداً، ربما يظنني ألاعبه بوشاحي!" عندما نال منها التعب، فردت وشاحها بشكل طولي، وغطت وجه شرف بطرفه، وغطت وجهها بالطرف المقابل، وغفت على ساقيه لبعض الوقت.

\*\*\*

كانت سحابة بيضاء تشوش على المكان عندما أفاق شرف الدين، وأحس بأنه نام مائة عام، أو كأنه استيقظ لتوه من الموت. حاول النهوض، لكنه لم يستطع، وأدرك أنه مازال مقيداً بجبال من ألياف النخيل الغليظة إلى عنقريب الجرتق. لم تكن به رغبة في المقاومة، فجسده الهزيل خائر القوى، وقبائل من النمل الزجاجي تنخر في عظامه. الصورة



التي عقلت بشباك بصره، ككابوس متوحش، كانت صورة أولئك الأطفال الفضوليين الذين راحوا يتفرجون عليه، محتبئين خلف ثياب أمهاتهم، ولازال منظرهم يبعث في نفسه المهانة.

شرف الدين لا يحب أن ينام على ظهره لوقت طويل كدعسوفة عائرة تنتظر الموت جوعاً، هذا الأمر يزعجه كثيراً، كما أن حبال ألياف النخيل الخشنة كانت تزيد من ضيقه؛ إضافة إلى الشيء الرابض على ساقيه، ولم يتمكن من تحديد ماهيته بعد.

انطلق منه أنين لاإرادي كان كفيلاً بإيقاظ عواطف التي أسعدها كثيراً أنه أفاق. أخذت تسأله عن حاله بقلق جم، فنظر إليها ملياً، قبل أن يرد بسخرية: "مغلول بحبال!" بدأت تسرد عليه ما حدث، وكأنه كان فاقداً للذاكرة، لتبرر سبب ربطه بالحبال، لكنه ابتسم ابتسامة باردة، ولم ينطق بشيء.

أخيراً أصبح بإمكانها أن تمرر كفيها على صدره، وأن تمسح عرقه في حنو أمومي لم يزعجه كثيراً، كأنه توقع منها ذلك. طلب منها أن تحل قيوده، لكنها لم تفعل. أخبرته أن ذلك لمصلحته، وأن كل شيء سيعود كما كان؛ إن هو اقتنع بدخول المصح النفسي مرة أخرى، فتملكته حالة من الاستياء. شعر أنه سوف يموت قبل أن ينجح في إقناعها بفك قيده، وأنها لن تعي أبداً ما يعنيه أن يكون الإنسان مقيداً، وممدداً على ظهره كالخنفس؛ فاستعصم بالسكوت.

عددت له أسماء اللواتي مررن للأطمئنان عليه، عندما سمعن أبواق سيارة الدكتور إسماعيل ججاجق، وشرحت له مدى القلق الذي تعيش فيه الأسرة، ومخططاتها لإصلاح ما يمكن إصلاحه من هذا الوضع، وكيف أنهم قرروا الاستقرار في الخرطوم من أجل أن يكونوا إلى جواره حتى يتعافى، ويعود إلى سيرته الأولى. وكان كأنه لا يسمع ما تقوله، معلقاً بصره بسقف الغرفة المليء بأخشاب السنط المعمّرة، وراح يلاحق، بعينه، حشرة وقعت في شباك عنكبوت غائبة، وقال في سرّه: "نحن صنوان يا صديقتي!"

باغتتها بجملة الأذية: "لا يقتل الوهم إلا مزيد من الوهم!" وصّرح لها برغبته في تناول خمر من يد أكيج الجنوية، ولكنها لم تتفاعل مع ذلك كثيراً، وشرعت تحدّثه عن مضار الخمر الصحية، وشكوكها أن لحالته هذه علاقة مباشرة بإدمانه على الخمر، وضربت له أمثلة عن أناس فارقوا الحياة بسبب ذلك، ولكنه لم يتعرّف على أيّ منهم، كما أن حرصها على الإشارة إلى أنهم كانوا أصحاء، جعله يطعن في صحة هذه الروايات من أساسها، وقرر أنها من ذلك النوع من الحكايات الوعظية الملفقة، التي لا يجب سماعها على الإطلاق.

-الخمر تريح أعصابي.

-أعصابك لن ترتاح إلا إذا عدت إلى المصح النفسي، هذا ما نصح به الطبيب، وهذا ما أجمعت عليه الأسرة.

- سأتعافى، وسوف أحرص على أن يحدث ذلك، فقط أريد كأساً واحدة لتحقيق ذلك.

-أنت عنيد.

-وأنت طيبة القلب.

نُفضت من جواره قبل أن يتمكن من استمالة قلبها كعادته، وإقناعها بطريقته التي لا تملك لها دفعا، وقررت الخروج من الغرفة قبل أن ترتكب حماقة لا تحمد عقباها. وقبل أن تفعل، صرّح لها بقراره الزواج من وقية عبد الباسط، ومشاريعه التي خطط لها لمستقبله، وأكد لها أنه سوف يعمل بنصيحتها، ويذهب إلى المصح النفسي؛ إن لم يكن من أجله هو، فمن أجل الحصول على حياة زوجية مستقرة، كما أرادت أمه دائما.

توقفت عواطف عند الباب قليلا، ثم التفتت إليه بدهشة غاضبة، لم يفهم أسبابها. تقدمت إليه بضع خطوات، بطريقة درامية، قبل أن تخاطبه بشيء أقل من السخط:

-تتزوج ممن؟

-من وقية عبد الباسط!

-ولكن وقية تزوّجت قبل عدة سنوات يا شرف، ورحلت عن القرية مع زوجها، وأنت تعلم ذلك! وربما أنجبت أطفالا الآن، من يدري؟

كانت سلسلة المفاجآت لا تتوقف عن إبهامه على الدوام، وكل مفاجأة تقذف به إلى قعر بئر سحيقة. شعر شرف الدين بأنه يتعرض لحالة من غسل الدماغ المؤسس، وأن المؤامرة أكبر بكثير مما كان يتصور. حاول أن يتشبث بوعيه الذي يؤكد له أن كل ما حدث قد حدث فعلا، وأنه لم يفقد عقله يوما، ولن يفقده.

-ولكنك عددها ضمن اللواتي تفانين في عمل المطبخ أيام العزاء؛ أليس كذلك؟

-تلك وقية أخرى، مراهقة لا تتجاوز الثانية عشرة. وقية عبد الباسط تزوّجت، وسافرت مع زوجها خارج البلاد، حتى أن أختها الصغرى تزوجها رجل ثري، وانتقل بها وبأفراد أسرتها إلى بورتسودان؛ ولا أحد يعرف عنهم شيئا منذ ذلك الوقت.

!!-

-أعلم أنك كنت تحبها، كلنا كنا نعلم ذلك، ولكنها رفضت شرطك بعدم الإنجاب. لقد حاولنا إقناعك كثيرا بالتنازل عن هذا الشرط، ولكنك لم تستمع لأحد، وليست هنالك أنثى، مهما كانت محبتها للرجل، تقبل بشرط كهذا. لا يمكنك أن تلومها يا شرف يا حبيبي، كان لابد لها أن تتزوج، لتستمر حياتها، فقد كانت على أبواب الثلاثين.

!!-

-ماذا تنظر إليّ هكذا؟ أنت تعلم أنها تزوجت، وقد كنت واحدة من الذين قدموا لك مواساتهم وقتها.

عشرات الأسئلة اللوححة ظلت تتفاخر في ذهنه كأطفال قبائل بدائية مزعجة لا يقدر على فك طلاسمهم، وشفرة لغتهم الملعونة. أسئلة فرضتها شكوكه حول ما أدلت به عواطف، وحول ما يحاول الجميع إيهامه به. "لابد أنهم يكذبون. الأمر يأخذ منحى أكثر جدية وسخفاً. هل يعقل أنني كنت أتوهم كل ذلك: أحاديثنا الليلية، ولقاءنا عند النهر، والجنس، وطعم قبلاصها، وابتسامتها المثيرة، وتسليي لمنزلها، وهروي منه؟ هل كنت أتوهم كل ذلك؟ لا.. إنها التركة الملعونة من تجعلهم جميعاً يتواطأون على الكذب. ولكن عواطف لا تكذب! هي أكثر سذاجة من أن تكذب، أو أن تتظاهر بالكذب؛ لابد أنهم أوهموها، هي أيضاً، بكل ذلك. أجل؛ هذا هو التفسير المنطقي الوحيد.

أيًا يكن؛ فيجب أن أحل هذا الحبل اللعين، وأن أبحث بنفسي عن إجابات لهذه الأسئلة. يجب أن أثبت لهم أنني لست مجنوناً، والأهم من هذا أن أثبت ذلك لنفسي أولاً. لو كان حسن البلولة هنا، لأنقذني من هذه الورطة. أجل؛ فهو الوحيد الذي أثق به، وهو الوحيد الذي سوف يصدقني. لا يمكن أن أكون مجنوناً، لا يمكن."

تظاهر شرف بالعودة إلى النوم، وراح يراقب عواطف من بين سيقان أحفانه المتشابكة، حتى خرجت، وأغلقت الباب وراءها، وعندها تنهد الصعداء. رأسه هو العضو الوحيد الذي بإمكانه تحريكه. ظل يتلفت في أرجاء الغرفة، وزواياها؛ عله يجد مخرجاً من ورطته، ولكن دون جدوى، ودون أن يعلم ما يتوجب عليه فعله.

\* \* \*

جلس شرف الدين أمام رب العمل الذي بدا غاضباً أشد ما يكون الغضب، لدرجة منعه من مصافحته، وظل يزجر مستفسراً عن سر غيابه الطويل، وهو يجوب المكتب جيئةً وذهاباً، ولاحظ شرف أنه يرتدي دبلته في يده اليسرى بدلاً عن اليمنى، كما يتذكر. ينظر إليه شرف على أنه من الشخصيات القلقة التي عرفها في مسار حياته، ولكنه يصفه دائماً بأنه شخص لطيف.

- لم أكن أعلم أنه يتوجب عليّ البقاء ثلاثة أيام بعد الدفن.
- لم يكن يتوجب عليك أن تذهب أصلاً
- أنا أيضاً ظننت هذا، ولكنك لا تعرف نعمات!

نظرت إليه نعمات بحنق، ولكنها لم تنطق بشيء، واكتفت بعض شفتها السفلى بدلاً عن ظهر سبابتها هذه المرة، فيما وقف ودالنعيم معتذراً:

- عفواً يا دكتور، هذه المرة لن يهرب، ولكن أرجو أن تظهروا بعض الحرص على نزلائكم؛ إنها مسؤوليتكم قبل كل شيء!

لم تعد المفاجآت تدهش شرف الدين؛ لذا فإنه فضل أن يوفر طاقة اندهاشه للضحك: "حتى مديري لم يكن مديراً!" وظل يضحك بصوت عال، ويضرب ركبتيه بباطن كفيه، الأمر الذي دعا الطبيب إلى استدعاء الممرضين لتقييده بالبالطو الخاص بنزلاء المصححة النفسية. شعر بشيء من الحزن، وبشيء لم يشعر به من قبل (اليأس). أغمض عينيه، وهو يستمع إلى حوار طبيبه المعالج مع أفراد أسرته دون تركيز، حاول أن يدخل إلى الأعماق أكثر فأكثر: "إنه العبث المفضي إلى الفوضى ولا شك! كل الأشياء لا تبدو كما هي حتمًا، والوجوه اللحمية ليست سوى أقنعة خشبية تتغير حسب الحاجة. هذا زمان مؤلم يقضي على كل المقولات المثالية، ويجعل منها محض خرافات بالية وساذجة. الحياة واجهة لمحال تجارية تتبع الأعضاء البشرية، والأدمغة، والأحلام الطائشة، وكل الأمنيات الجميلة والعذبة.

المعادلات الصعبة ليست مستحيلة بالضرورة، ولكنها تكتسب صعوبتها من ضراوة النتيجة، ووعورة الصياغة الأكاديمية. هكذا هي قضيتي أمام كل المشكلات التي تعترضني. أجد نفسي في نهاية الطريق أحاول إمساك العصا من المنتصف تمامًا، رغم كل إدعاءاتي العملائية، وميلي للتطرف نحو الحق المجرد، كيفما تكون واجهته الزجاجية: مشوه ومخدوشة، أم نظيفة وبراقة ولا معة.

القهر يعني ألا نعرف ما نريد، والفقر يعني ألا نملك ما في أيدينا، والخوف يعني أن نفقد الإرادة، واليأس يعني أن نتوقف عن الحلم. إذا كنت لا تعرف مستقبلك؛ فأنت جاهل، وإذا كنت لا تحلم؛ فأنت جبان. تلك أمور مقضية؛ أما أنا فلن أموت قبل أن أهزم القدر أو أتصالح معه، ولا حل آخر لي؛ فنحن لسنا دائمًا طبيين."

وقف شرف الدين وراء النافذة ذات القضبان الصماء، وظل يراقب أفراد أسرته، وهم يقطعون فناء المصح النفسي الخارجي: فتحية وزوجها ودالنعم في المقدمة، ونعمات تمسك بعواطف التي لم تكف عن البكاء منذ أفاق ليجد نفسه مغلولاً إلى عنقريب الجرتق. لسبب ما لا يعلمه اعتلت ابتسامة ساخرة وجهه الحزين، وكأنه وداع من نوع شديد الخصوصية. أسر في نفسه، وهو يرى أشعة الشمس أو ان الغسق: "لا بأس؛ سأبدأ الآن مراجعة قائمة الكماليات من جديد، وهذه المرة سأضيف إليها قناعاً مبتسمًا!"